كتاب الهلال

بُناة النّهضة العربية

بقلم

جرجي زيدان

سلسلة شهرية

تصدر عن دار الهلال





كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٧٢ ـ شعبان ١٣٧٦ ـ مارس ١٩٥٧

No. 72 — March 1957

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ الحجاز والعراق والأردن وليبيا ١١٠ قروش صـــاغ ـ فى الامريكتـــين ٥ دولارات ـ فى ســائر انحـــاء العـــالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنـــا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

بُناة النهضة العربية

بقلم

جرجي زيدان

دار الهلال



جرجي زيدان مؤسس الهلال

مقدمة

امتاز عهدنا الجديد ـ عهد الثورة ـ بتوطيد دعائم النهضة العربية ، والعمل لتقدمها ، والدعوة الى توحيد جهود العرب للمحافظة على القومية العربية ، لأنها كما قال الرئيس جمال عبد الناصر : « الدرع الواقية التى تحمى مصر وتحمى سائر الدول العربية من مؤامرات المستعمرين واطماع الطامعين »

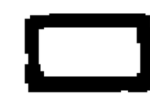
والواقع ان هذه الاطماع والمؤامرات التى يدعو اليها الرئيس اليوم تمتد الى عشرات السنين . فقد عمل المستعمرون والطامعون للقضاء على القومية العربية ، وتقطيع أوصال الاقطار العربية من المحيط الاطلسى الى خليج العرب ليتمكنوا من السيطرة على هذه الاقطار ، واستعباد أهلها العرب ، وتمزيق وحدتهم ، ومحو عروبتهم

وقد كانت الحروب الصليبية ترمى الى هذه الغاية ، فلم تكن ـ كما أثبت بعض المؤرخين ـ حروبا دينية ، بل كانت حروبا استعمارية يريد بها الغرب استعمار الشرق كما حدث فى فتوحات اليونان فى عهد الاسكندر وقبل عهده ، وكما فعل الرومان فى غزواتهم للشرق الاوسط واستيلائهم على مصر ونحوها من البلاد الشرقية حتى أطلق هؤلاء المؤرخون على الصليبيين الفرنجة او الافرنج

كان الشرق الاوسط اذن مطمع المستعمرين الغربيين منذ اقدم العصور ، لأنه مهد الحضارة ومهبط الوحى ، ومطلع

العلوم والآداب ، وملتقى قارات العالم . وكانت شعوب البلاد الغربية فى جهلها ووحشيتها تنظر اليه باعتباره بلاد المدنية والرقى والثروة الروحية والمادية ، فكانت مطامعهم على الدوام تتجه اليه وتتهافت على خيراته ، والاستبداد بأهله وسلبهم أقواتهم وأموالهم وثمرات أرضهم ، ليأخذوها هم الى بلادهم ، ويخدموا بها شعوبهم ويضاعفوا بها قوتهم ، ويزدادوا بالشرقيين ظلما واستبدادا وعدوانا

ولما ظهرت الحضارة العربية ، وتغلبت على هؤلاء المستعمرين من الرومانيين واليونانيين وغيرهم من الفرنجة استطاعت البلاد العربية أن تعيش حرة مستقلة ردحا من الزمان . بل استطاعت أن تقابل القوة بأقوى منها حتى انتشرت من خليج العرب الى المحيط الاطلسى ، وغزت أوربا وامتلكت اسبانيا وأرخبيل الجزائر الايطالية ، وحاولت أن تفتح أوربا كلها ، ولكن الخلافات الداخلية ، وأطماع الملوك والامراء أضعفت الامبراطورية العربية وقضت على وحدتها ، فاستطاع الغرب أن يعود الى أطماعه الاولى للسيطرة على هذه البلاد



وفى القرن التاسع عشر كانت الدولة العثمانية قد شارفت نهايتها فتنافست الدولتان الغربيتان الكبيرتان فى ذلك الحين وهما انجلترا وفرنسا فى احتلال مصر وشمال افريقا وشرقها وجنوب الجزيرة العربية ، وانتهزتا فرصة القضاء على الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الاولى ، فاحتلتا فلسطين وسورية ولبنان والعراق وتمكنت انجلترا من نشر نفوذها واستعمارها الاقتصادى والسياسى فى البلاد الاسلامية الاخرى

فى هذا الحين ظهرت طائفة من القادة المخلصين وزعماء الاصلاح للدفاع ضد الاستعمار الذى يريد القضاء على العرب والقومية العربية ، فكان فى مقدمتهم عبد القادر الجزائرى فى شمال افريقا ، واحمد عرابى ، وعبد الله نديم ، ومصطفى

كامل فى مصر ، وعبد الرحمن الكواكبي فى سورية . وكان المصلحون الاسلاميون والاجتماعيون وفى مقدمتهم جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، وكان العلماء والادباء الذين تولوا تأسيس النهضة العلمية والادبية فىالشرق العربى أمثال محمود الفلكى ، ورفاعة رافع الطهطاوى ، ومحمود سامى البارودى ، وعلى باشا مبارك وناصيف اليازجى ، وبطرس البستانى ممن نهضوا بخدمة العلوم والآداب والفنون التى هى أساس نهضات الشعوب وتقدمها الى الامام

ولقد سجل المرحوم جرجى زيدان مؤسس الهلال جهود هؤلاء القادة بناة هذه النهضة العربية فى هذا الكتاب الذى اقتبسناه من كتابه الكبير « مشاهير الشرق » ليقف القراء ـ فى هذه الآونة التى تتضاعف فيها الجهود لتقدم النهضة العربية ـ علىتاريخ هؤلاء الاعلام وما قاموا به من خدمات جديرة بأن تتصل بما يبذل اليوم من خدمات جليلة فى هذا السبيل لخدمة العروبة ومستقبل الوطن العربى

وقد قسمنا هذا الكتاب الى أربعة أقسام تشتمل على تاريخ سبع عشرة شخصية بارزة كما يأتى :

القسم الاول : قادة وساسة

القسم الثانى : رجال اصلاح

القسم الثالث : رجال علم وتعليم

القسم الرابع : رجال أدب وفن

ولاريبأنلهذا الكتابرسالته القيمة فىخدمة الثقافةالعربية، ونهضة العرب فى مختلف البلاد ، فهو يمثل وحدة العروبة من أقصى المشرق الىأقصى المغرب ، ويدل على أن اهداف الامة العربية فى الحصول على الكرامة والحرية ، وفى الاصلاح العام وتوحيد الجهود ، ترمى الى التخلص من الاستعمار والمستعمرين ، واعادة ماكان للعرب من مجد وسؤدد

طاهر الطناحى

قادة وساسة

١ ـ عبـــد القادر الجـزائرى
٢ ـ أحمـــــــد عرابى
٣ ـ محمود سامى البــارودى
٤ ـ مصــــــــطفى كامل

عبد القادر الجزائرى

١٢٢٢ - ١٣٠٦ هـ الموافق ١٨٠٧ - ١٨٨٨ م

هو الامير عبد القادر ناصر الدين ، ابن الامير محيى الدين الحسينى . يتصل نسبه بالامام الحسين . ولد فى شهر مايو سنة ١٨٠٧ فى قرية « القيطنة » التابعة لايالة وهران فى جزائر الغرب . وكان والده من أكابر العلماء العاملين ، محترما لدى أعيان الجزائر ، لبسط يده ، وكرم أخلاقه ، ووداعته

وقد بذل والده قصارى جهده فى تثقيفه ، لما آنس فيه من الذكاء والدراية ، فتمكن فى مدة قصيرة من اكتساب جانب عظيم من العلم ، وحفظ القرآن الشريف حفظا جيدا. واشتهر فى السابعة عشرة من عمره بشدة البأس وقوة البدن والفروسية ، حتى كان يشار اليه بالبنان بين الفرسان، لمهارته فى ركوب الخيل ، واللعب على ظهورها . وكان يطارد الخنزير البرى فى الغابات ويصطاده ، على أن ذلك لم يشغله عن القيام بواجباته الدينية

وفى نوفمبر سنة ١٨٢٥ ، صحب والده الى الحرمين لأداء فريضة الحج والزيارة ، فمرا بالاسكندرية وزارا القاهرة ، وذلك فى عهد محمد على « باشا » فأكرمهما وحاشيتهما ، ثم واصلا رحلتهما الى الحجاز عن طريق السويس . وعرجا بعد الحج على دمشق فأمضيا فيها زمنا . ثم سارا منها الى بغداد لزيارة مقام سيدى عبد القادر الكيلانى ، فنالا هناك كل رعاية واكرام . ومن هناك عادا الى الحرمين ثم الى وطنهما ، فوصلا اليه فى أوائل سنة ١٨٢٨



عبد القادر الجزائرى

وازداد عبد القادر بعد هذا السفر شغفا بالعلم ، فاعتزل لتحصيله ، ولزم الخلوة حيث عكف على مطالعـــة كتب العلم والفلسفة ، فدرس رسائل أفلاطون وفيثاغورس وارسطاطاليس وتعمق فى درس الفقه والحديث ، والجغرافيا والفلك والتاريخ، وكتب العقاقير • وجمع مكتبة من أثمن مكتبات تلك الايام

وفى سنة ١٨٣٠ ، استولى الفرنسيون على الجزائر ، ووزعوا منشورات أعلنوا فيها امتلاكهم للبـلاد ، واخراجها من أيدى العثمانيين ، فشق ذلك على القبائل العربية القاطنـة فى تلك الانحاء ، وثاروا ضد الفرنسيين • وكانت قوات هؤلاء بقيادة الجنرال « برمونت » • قد بلغت جبـال الاطلس ، فاضطرت الى التقهقر حتى السواحل وأخـذت فى تحصينها ، ثم عادت فاستولت على مدينة وهران

وكانت نتيجة احتـلال الفرنسيين لتلك البـلاد ، وخروج بعضها من حوزة الدولة العلية « تركيا » أن اختلت الاحوال فيها ، فسادت الفوضى ، واجتمع المرابطون ورؤساء القبائل وفى مقدمتهم الامير محيي الدين والدصاحب الترجمة• وتشاوروا فى الامر ، فاستقر الرأى على الانضمام الى سلطان مراكش ، وكان يومئذ مولاى عبد الرحمن ، ووافقهم على ذلك ، فدخلت الجزائر فى سلطانه ، وبايعه الجزائريون وخطبوا باسمه

وغضب الفرنسيون ، وبعثوا الى مولاى عبد الرحمن مهددين بالحرب ان لم يسحب جنوده من الجزائر ، فآثر الانسحاب • وعلى أثر ذلك اجتمع كبار الجزائريين للتشاور فى الامر واستقر رأيهم على اقامة الامير محيى الدين سلطانا على البلاد ، وذهبوا اليه فى بلدته « القيطنة » حيث عرضوا عليـه الامر وأرادوا مبايعته ، ولما أمسك عن الاجابة هـددوا بقتله ان لم يقبـل • فاستجاب لرغبتهم ، على أن تكون السلطة لولده عبد القادر ، وقبلوا ذلك راضين مغتبطين

كان الامير عبد القادر فى ذلك الوقت يحارب الفرنسيين فى

موضع يقال له « حصن فيليب » . فبعثوا اليه وبايعوه،وسنه اذ ذاك ٢٥ سنة . وعلى أثر مبايعته قصد الى المسجد الجامع حيث صلى بالناس وخطبهم حاثا اياهم على الطاعة ، والعمل بمقتضى الشرع الشريف ، والاقتداء بالخلفاء الراشدين

ثم جمع كلمة القبائل ، وضم بعضها الى بعض لكى تقوى على مقاومة العدو الاجنبى واخراجه من البلاد . وخاض عدة وقائع فاز فيها على الفرنسيين ، ولا سيما موقعة وهران ، اذ انتصر فيها انتصارا مبينا ، وكانت قوات الفرنسيين فيها بقيادة الجنرال «ميشيل» فهابه الفرنسيون ، وأخذوا يخشون بطشه منذ ذلك الحين . ولم تر حكومة فرنسا ــ برغم شدة رغبتها فى بسط سلطتها على الجزائر ــ أن تخاطر بارسال حملة كبيرة اليها لمحاربة الامير عبد القادر ، وأوعزت الى الجنرال «ميشيل» أن يعقد معه معاهدة صلح ، وتم عقدها سنة ١٨٣٤ م



ولما هدأت الاحوال ، تفرغ الامير عبد القادر لاصلاح الشئون الداخلية فى بلاده ، وواصل فى الوقت نفسه اعداد العدة لمواجهة الحرب ، لاعتقاده أنها آتية . فأنشأ مصانع للأسلحة وصب المدافع وانتاج البارود ، ونظم الجيش . وكان هذا يحتاج الى نفقات طائلة ، فطالب القبائل بأداء الزكاة عن ماشيتها ، وامتنع بعضها ، لكنه تمكن بحسن درايته من اخضاعها ولم شعثها ، فاتسعت سلطته وامتد نفوذه

وشق ذلك على الجنرال « دى أورلين » ــ القائد العام للقوات الفرنسية ــ فطلب الى الامير عبد القادر أن يلزم حدوده ، ولايمد سلطته الى خارج مدينة وهران . وأجاب الامير بأن دائرة سلطته غير محدودة بمقتضى المعاهدة بين الفريقين . وطالت المفاوضات فى هذا الشأن ، وأدرك سوء نيتهم . ثم تحقق ذلك حينما رفضت بعض القبائل المقيمة

خارج وهران امره اليها بالانتقال الى الداخل ، واحتمت هذه القبائل بالفرنسيين ، فقبلوا أن يحموها برغم طلبه اليهم الا يفعلوا . ثم ساروا لقتاله فى خمسة آلاف من المشاة وعدة من الفرسان وبعض المدافع . ولكنهم سرعان ما انسحبوا أمام رجاله . وماكادوا يصلون الى مضيق هناك ، حتى باغتهم الامير ورجاله بهجوم خاطف ، انتهى بالقضاء على أكثر قواتهم فلم ينج منها الا قليل !

وكان لهذه الهزيمة النكراء صدى بعيد فى فرنسا ، وقام الخطباء هناك يلومون حكومتها ويحضونها علىالانتقام من ذلك الامير العربى . وكان هو على علم بكل مايجرى فى باريس من اطلاعه بانتظام على ماينشر فى الصحف الفرنسية ، بواسطة مترجمين خصصهم لذلك . فضاعف استعداده . حتى اذا جاءت قواتهم الى وهران فى نوفمبر سنة ١٨٣٥ ، خف الى قتالهم . ولكن كثيرا من رجاله لم يثبتوا معه وتفرقوا عنه ، فلم يجد بدا من الرجوع الى « مسكرا » ــ العاصـــمة التى اتخذها لنفسه ــ ولم يستطع دخولها أول الامر لوجود القوات الفرنسية بها ، فنزل ببلدة قريبـــة منها وهو فى حالة يأس شديد . ثم جاءته الانباء بأن الفرنسيين أخلوها ، فانتقل اليها حيث وافاه رجاله المخلصون ، واشتد أزره مرة أخرى ، واخذ فى معاقبة الذين خالفوه !

وكان الفرنسيون قد احتـــلوا « تلمسان » . ورحب بهم أهلها ، ولكن اليهود فيها ضاقوا بالفرنسيين لفرضهم ضرائب باهظة عليهم وارغامهم على ادائها . فانتهز الامير عبد القادر هذه الفرصة ، وقام على رأس رجاله بهجوم سريع على تلك المدينة ، وتمكن من الاستيلاء عليها وطرد الفرنسيين منها بعد معركة حامية !

واشتد غضب الفرنسيين فى باريس على الامير المنتصر ، وبعثوا الىالجزائر بنجدات قوية أخرى. ووقعت معارك عدة

كان النصر فى أكثرها حليف الامير . ثم حدث أن خسر احدى المعارك ، فانتقض عليه كثير من مواطنيه ، وتزعم العصاة قاض اسمه ابراهيم ، كان يعتزم خلع الامير ليحل محله . فاشتد غضب الامير عليه ، وجرد سيفه وعلقه بسرج جواده ، مقسما لايغمده حتى يقطع به رأس ذلك الخائن . وقد بر بقسمه ، وضرب عنق ذلك القاضى الخائن على مشهد من رجاله ، فكان لذلك وقع عظيم فى قلوب كل مواطنيه . وسرعان ما عاد المتخلفون الى صفوف قواته ، فواصل الهجوم بهم على مواقع الفرنسيين ، وضايقهم مضايقة شديدة ، حتى قلت المؤن لديهم ، كما قلت الذخائر لديه . فاتفق الفريقان على عقد هدنة ريثما يتزود كل منهما بما يحتاج اليه . وعلى ذلك هدأت الحالة فى البلاد بعد وقف القتال

وبعد ذلك بقليل ، وصل الجنرال « بوجيد » الى الجزائر ، موفدا من الحكومة الفرنسية لاعادة تنظيم قواتها هناك، والقضاء على الامير ورجاله

وأرسل « بوجيد » الى الامير ، مطالبا اياه بأن يعترف بسيادة فرنسا على الجزائر ، وبأن يؤدى لها جزية لقاء اعترافها بسلطانه على منطقة محددة لاتتجاوز نهر الخليف . فرفض الامير هذه المطالب معلنا الا حق لفرنسا فى ان تفرضها عليه ، لأنها ليست المنتصرة فى الحرب . وشق ذلك على الفرنسيين ، ولكنهم لم يجدوا بدا من الصلح معه ، لما عاينوا من بسالته وقوة جلاده . وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة « النافنا » سنة ١٨٣٧ ، وهى تقضى بتبادلهما التمثيل القنصلى ، وبألا يسلم الامير أى ساحل من سواحل بلاده لدولة أجنبية الا بعد مشاورة فرنسا



وجه الامير عبد القادر بعد ذلك عنايته الى اصلاح الشئون

الداخلية لبلاده ، كما واصل الاستعداد العسكرى على عادته لمواجهة الطوارىء . وفى خلال ذلك انتقضت عليه بعض القبائل، وفى مقدمتها قبيلة « ازراق » . فتمكن من اخضاعها بالسيف وحسن السياسة . ثم أنشأ مدينة تجارية سماها « تقدمة » . كما أنشأ كثيرا من المعاقل واستعان بقواد أوربيين لتنظيم جيشه ، وأنشأ مصانع لانتاج المدافع ومختلف الاسلحة فى تلمسان وغيرها. وعمل لاستخراج المعادن، وتنشيط الصناعة والزراعة والتجارة . ونشر التعليم بالاكثار من المدارس . واعتزم انشاء جامعة كبيرة فى « تقدمة » تجمع بين العلوم الدينية الاسلامية والعلوم الحديثة . وضرب نقودا فضية ونحاسية نقش على احد وجهيها « هذه مشيئة الله وعليه توكلت » . وعلى الوجه الآخر « ضرب فى تقدمة . السلطان عبد القادر »

وكان شديد التيقظ ، دائم السهر على مصالح بلاده ، حريصا على تفقدها بنفسه. ولكن الظروف لم تسمح باستمرار الامن فى الجزائر ، اذ طمع الفرنسيون بعد استيلائهم على « قسطنطينية » فى مد سلطانهم على البلاد المجاورة لها ، برغم وقوعها فى حدود سلطة الامير ، بمقتضى المعاهدة . وأصروا على عزمهم ، متعللين بتحريف كلمة فى تلك المعاهدة . وعبثا حاول الامير حمل حكومة باريس على انصافه ، فأخذ فى تحصين المناطق المختلف عليها والاستعداد للدفاع عنها . وارسل الى قائد الحملة الفرنسية، والى المسيو «تيبرس» ــ الوزير الفرنسي الشهير ــ منذرا بأن الاصرار على ذلك الطلب لن ينتج الا سفك الدماء ، فلم يعبأوا بانذاره ، وتظاهروا بالتأهب لقتاله ليرهبوه بضخامة عددهم وعدتهم ، ولكنه ثبت على عزمه . ومانشبت الحرب حتى تمكن من دحر القوات الفرنسية وطردها الى السواحل

وعظم الامر على الحكومة الفرنسية ، وارسلت الى قواتها

المندحرة فى الجزائر نجدات كبيرة ، فاستأنفت الهجوم على الامير ورجاله ، ودارت بين الفريقين معركة شديدة بالقرب من جبال الاطلس ، فتغلب الفرنسيون أول الامر ، ولكن الامير سرعان ماتدارك الموقف ، وأعاد تنظيم رجاله على النظام القديم بدلا من النظام الافرنجي الحديث . ثم كر على القوات الفرنسية فما لبث أن هزمها واضطرها الى الانسحاب !

وتوالت المعارك بعد ذلك طيلة ست سنوات ، واضطرت فرنسا فى نهايتها الى تغيير قائد قواتها فى الجزائر ، بقائدها القديم الجنرال «بوجيد» ، وبعثت معه بامدادات كثيرة من الجند والاسلحة ، ولكنه لم يثبت فى هذه المرة أيضا أمام الامير البطل المغوار !



ولما رأى الامير أن البلاد أصبحت كلها ميدانا للحرب ، أنشأ مدينة متنقلة سماها « الزملة » . وهى مؤلفة من خيام تقام على نظام شوارع المدن ، وتتبع الجيش فى حله وترحاله ، حيث يعمل فيها الصناع ، ويحتفظ بالاسرى ، ويلجأ اليها المتعبون من الجند ، كما يقيم بها النساء والاطفال ، وتعد الاطعمة للجنود العاملين . وقد انتفع الامير بهذا النظام الى حد كبير حمل الفرنسيين على توجيه الجانب الاكبر من نشاطهم الى حرمانه من تلك المدينة ، واستطاعوا الوصول اليها بواسطة بعض الخونة ، فأحرقوها ، كما احرقوا قبل ذلك مدينة « تقدمة » التى أنشأها الامير ، ونهبوا ماكان فى « الزملة » من مؤن ومعدات ، كما قتلوا عددا كبيرا ممن كانوا بها

وكان الامير وقت حريق « الزملة » فى أحراج « سيرسو » فلما علم به ، أهمه الامركثيرا ، ولكنه تجلد وقال لمن حوله : « لاتهنوا ولا تحزنوا ، ان الله معنا ، وان اخواننا الذين قتلوا لأحياء عند ربهم يرزقون » . ثم جدد قواته ، وأنشأ « زملة » جديدة . وكان قد استنجد بحكومة انجلترا ، وبسلطان

مراكش ، فلم ينجداه . فى حين تلقى الفرنسيون نجدات كبيرة ، وتمكنوا من حمل سلطان مراكش على معاضدتهم ضده . ولكن هذا كله لم يثن عزمه عن مواصلة الجهاد ، فظل يقاتل بشجاعة فى مختلف ميادين القتال التى شملت الجزائر كلها ، حتى نهاية سنة ١٨٤٦ . وكان التعب والملل قد نالا من رجاله ، فانحاز بعضهم الى جانب سلطان مراكش . وحاول الامير أن يثنى جاره هذا عن محاربته ، مذكرا اياه بصداقتهما القديمة ، وبما بين بلديهما من علاقات وروابط دينية ولغوية وتاريخية ، ولكن سلطان مراكش لم يستجب له ، وخيره بين التسليم ، أو الرحيل الى برارى الجزائر ، فكظم الامير غيظه ، وآثر اعتزال الناس والعكوف على العبادة

وفى أواخر سنة ١٨٤٧ ، علم بتحرك القوات المراكشية لغزو « زملته » . ولم يكن معه اكثر من خمسة آلاف ، بينما عدد الغزاة القادمين عشرة أمثالهم أو يزيدون . على انه مع ذلك تمكن من صدهم وتفريق شملهم برجاله القليلين ، اذ فاجأهم بالهجوم المضاد ليلا . ولما أعادوا تنظيم قواتهم وكروا عليه ، تمكن من صدهم مرة أخرى ، وانزل بهم خسائر فادحة ، وواصل مطاردتهم حتى داخل بلادهم . غير أنه آثر الرجوع الى بلاده لقلة رجاله . وفيما هو عائد بهم وقد أنهكهم السفر والتعب ، علم بأن القوات الفرنسية تستعد لقتاله على مسيرة ثلاث ساعات ، كما علم فى الوقت نفسه بأن القوات المراكشية قادمة من خلفه للانتقام لهزيمتها السابقة ، فجمع رجاله وخطب فيهم مصرحا لهم بحقيقة الخطر المزدوج المحيق بهم ، ثم قال لهم : « لقد وفيتم بما بايعتمونى عليه ، وبذلتم جهدكم فى معاضدتى . اما وحالتنا الآن تقتضى التسليم ، فأرى أن التسليم للفرنسيين خير لنا من التسليم للمراكشيين . والرأى لكم فى الحالين ! » . فأجابوا بانهم على رأيه

وحددت ليلة ٢١ ديسمبر سنة ١٨٤٧م للتوقيع على شروط التسليم ، وفى مقدمتها أن يغادر الامير وحاشيته البلاد الى

الاسكندرية أو مدينة بورصة للاقامة بها ، وكانت ليلة ممطرة شديدة العواصف فأناب الامير رجلين من خاصــته وحملهما خاتمه للتوقيع على الشروط فى معسكر الفرنسيين ، وما علم القائد الفرنسي برغبة الامير فى التسليم طبقــا لهذه الشروط حتى وافق فورا ، وكذلك تلقت الحكومة الفرنسية هذا النبأ بالاغتباط الشديد ، واحتفلت به باريس واهلها احتفالا عظيما ، لأنه وضع حدا للمتاعب التى عانتها فرنسا طيلة خمسة عشر عاما . ولما ذهب الامير بعد ذلك الى المعسكر الفرنسى قوبل بالتكريم والاجلال

وفى ٢٥ من ذلك الشهر ، أبحر الامير وحاشــيته وعدد أفرادها ثمانون ، على سفينة حربية ، أقلتهم الى طولون . وهناك قوبل الامير بالترحاب ، وعرض عليه أن يقيم بفرنسا ضيفا مكرما على حكومتها هو ومن معه ، فلم يقبل . ثم حدث أثناء ذلك ان وقع انقلاب فى نظام الحكم الفرنسى ، وتحولت من الملكية الى الجمهورية ، فطال الاخذ والرد بين الامير والمسئولين الفرنسيين الجدد ، ثم وافقوا على مغادرته فرنسا الى حيث شاء ، على أن يتعهـــد هو ورجاله كتابة بعدم رجوعهم الى الجزائر ، وكتب هذا التعهد فى مارس سنة ١٨٤٨ م



بقى الامير ومن معه فى فرنســا ، فى انتظار اعداد العدة لسفرهم ، وفيما هم كذلك فوجئوا بصدور أمر من الجمهورية الفرنسية الجديدة ، اعتبرت فيه الامير أسيرا ، بحجة أنها تسلمته من الحكومة السابقة على هذا الاساس . ثم زج به وبرجاله الى السجن فى بلدة « ايبس » . فلبثوا فيه حتى أكتوبر سنة ١٨٥٢ ، حيث عكف الامير على الكتابة والتأليف . والح على رجاله مرارا خلال ذلك فى أن يتركوه وحده فى الاسر ، لأن السلطات الفرنسية لاتمانع فى اطلاق سراحهم ، ولـكنهم أبوا الا أن يبقوا معه ليشاركوه فى السراء والضراء

وكان اطلاق سراحهم جميعا عقب زيارة الامير نابليون للأمير

فى معتقله ببضعة أيام ، ثم توجه الى باريس بدعوة من نابليون حيث قوبل بالتجلة والاكرام من اهلهـــا جميعا ، واقام له نابليون مأدبة كبيرة فى قصره ، واهـــدى اليه جوادا عربيـــا أصيلا . ثم اتفق بعد شهر من ذلك أن أعيدت الامبراطورية الفرنسية ، وانتخب نابليون امبراطورا ، فلمـا زاره الامير عبد القادر مهنئا ، لقى منه كل رعاية وتكريم ، وأهدى اليه سيفا مكتوبا عليه « من الامبراطور نابليون الثالث الى الامير عبد القادر بن محيى الدين »

وفى ٢١ من ديسمبر سنة ١٨٥١ ، برح الامير فرنسا مودعا باحتفال شائق ، قاصدا الى مدينة « بورصـــة » فى الديار العثمانية للاقامة بها ، وتعهدت حكومة فرنسا بتخصيص نفقة سنوية له وحاشيته قدرها أربعة آلاف من الجنيهات . وبقى مدة يتردد بين بورصة وباريس ، ثم استقر رأيه على الاقامة الدائمة بدمشق ، فوصل هو ورجاله الى بيروت فى ٢٤ يونية سنة ١٨٥٦ ، ومنها توجه الى دمشق حيث قوبل بترحيب شعبى كبير ، واقام بمبنى فيها يدعى « العمارة » مقسما وقته بين العبادة والمطالعة والتأليف ومجالسة العلماء والفضلاء



ولما قامت الثورة ضد المسيحيين فى دمشق سنة ١٨٦٠ ، كان الامير عبد القادر فى مقدمة العاملين على اخمادها ، بعد أن فشلت محاولاته العديدة لمنع وقوعها . فبذل قصـارى جهده فى كف الاذى عن المسيحيين . وما علم باندلاع نيران الثورة فى اليوم التاسع من يوليو فى تلك السنة حتى جمع كل من كانوا فى دمشق من المغاربة وفرقهم فى مختلف أنحائها لانقاذ من يستطيعون انقاذه من المسيحيين ، ونقلهم الى داره ليكونوا فى حمايته . ولما امتلأت هذه الدار باللاجئين ، أخلى الدور المجاورة لها لاستقبال بقية اللائذين به ، وفى مقدمتهم قناصل الدول الاجنبية . وكان ينفق عليهم بسخاء ، وعضده فى ذلك كثيرون من الفضلاء وفى مقدمتهم العالمان الجليلان : محمود حمزة

وأخوه أسعد . وقد اشتركا مع الامير ورجاله فى صد الهجوم الذى قام به الاكراد فى اليوم الثالث للثورة للقبض على أولئك اللاجئين

وكان والى دمشق قد أعلن حمايته لكل من يلجأ الى قلعة المدينة من المسيحيين ، فهرع اليها منهم نحو خمسة آلاف ، وما كادوا يستقرون هنـــاك حتى علم الامير بأن جموعا من الدروز فى طريقهم الى القلعة للفتك بهم ، فسـارع الى نجدتهم وتمكن من رد تلك الجموع الزاحفة على أعقابها ، بعد أن هددها باطلاق الرصاص . وظل الامير طول أيام الثورة السـبعة ، متأهبا لانقاذ المسيحيين ورد العدوان عنهم ، وايواء اللاجئين منهم وحمايتهم، واسعاف الجرحى، وتعزية الارامل واليتامى . وكان يقضى أكثر الليل ساهرا وبندقيته فى يده للدفاع عمن فى حماه ، وفى ١٥ يوليو من تلك السنة وصل الى دمشق وال جديد ، وعزل الوالى القديم ، وأخذت الحالة فى الهدوء . وكان فى القلعة وقتئذ من اللاجئين نحو ستة آلاف ، وفى دار الامير نحو أربعة آلاف . ثم جاء فؤاد باشـــا وتولى محاكمة المعتدين . وكانت حماية الامير المسلم للمسيحيين خلال الثورة ، وتكريمه للاجئين منهم ، موضع تقدير من الجميع ، وأهديت اليه أوسمة عدة من الدول الاوربية ومن الدولة العلية اعترافا بفضله وبما أبداه من شهامة ومروءة وسخاء

وعاد الامير بعد ذلك الى عكوفه على العبـــادة والمطـــالعة والتدريس ، ثم قام بأداء الحج وزيارة الحرمين الشريفين سنة ١٨٦٣ ، ومر بالاسكندرية فى طريق عودته فى السنة التالية ، وانضم الى الجمعية الماسونية بها . ثم رجع الى دمشق حيث استأنف معيشته البسيطة بها ، معظما مكرما من الجميـــع ، واشتهر بورعه وتقواه بجانب علمه وفضـــله ، حتى اعتبره الصوفيون من اهل الكشف وانزلوه منزلة ابن عربى والنابلسى، حتى توفاه الله سنة ١٨٨٨ بعد أن ألف بعض الكتب فى التوحيد والتصوف

احمد عرابى

١٢٥٧ — ١٣٣٠ هـ الموافق ١٨٤١ — ١٩١١ م

طلبنا من أحمد عرابى بعد عودته من المنفى أن يذكر تاريخ حياته ، فكتب عن نفسه وقال ما ملخصه :

ولدت فى ٧ صفر سنة ١٢٥٧ هـ من أبوين شريفين من ذرية العارف بالله السيد صالح البلاسى البطائحى ومقـامه الشريف بقرية فاقوس بمديرية الشرقية وهو أول من قدم الى بلاد مصر من بلاد البطائح بالعراق فى أواسط القرن السابع للهجرة وهو من ذرية الامام على الرضا بن الامام موسى الكاظم من سلالة الامام الحسين بن على بن أبى طالب وابن فاطمة الزهراء البتول بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم . واسم والدى محمـد عرابى بن السيد محمد وفى بن السيد محمد غنيم بن السيد ابراهيم بن السيد عبد الله الى آخر السلسلة الشريفة . واسم والدتى فاطمة بنت السيد سليمان بن السيد زيد تجتمع مع والدى فى جدى الثالث عشر المسمى ابراهيم مقلد رحمه الله تعالى . ومولدى كان بقرية هرية رزنة بمديرية الشرقية على ميلين من شرقى بندر الزقازيق وهى بلدة قديمة جدا من ضـــواحى مدينة بوباسطة كرسى مملـكة العـــائلة ٢٢ فى زمن شيشاق بن نمرود التى يقال لهـا الآن «تل بســطة» . وعشيرتى فيها نحو ربع تعدادها وكان والدى رحمه الله تعالى شيخا عليها الى ان توفى فى شهر شعبان سنة ١٢٦٤ هـ فى زمن الهواء الاصفر عن ثلاث نسوة وأربعة أولاد وست بنات . وكنت ثانى أولاده الذكور وسنى ٨ سنوات وترك لنا ٧٤ فدانا ولو شاء



احمد عرابى

لاستكثر من الاطيان الزراعية ولكنه كان رحمه الله تعالى يراعي صالح أبناء عمومته حيث أن أطيان القرية كغيرها كانت مكلفة باسماء المشايخ يوزعونها بمعرفتهم على أهل بلادهم بحسب الاحتيـــاج الى عهـــد عباس باشا الاول وهو أول من كلف الاطيان بأسماء الافراد وألزمهم بدفع خراجها وما زاد عنهم يترك للميرى ويسمونه المتروك . وكان والدى عليه سحائب الرحمة والرضوان عالما فاضلا تقيا نقيا أقام بالجامع الازهر ٢٠ ســنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير وبرع فى كثير من العلوم النقلية والعقلية على كثير من المشايخ كشيخ الاسلام القويسنى رحمه الله تعالى وغيره من العلماء الاطهار ، ولما آلت اليه وظيفة الشياخة على عشيرته جدد عمارة المسجد المنسوب الى عشيرته بالقرية المذكورة وفيه أربعة أعمدة من الحجر الصوان القديم ومنبر من الخشب عجيب الصنعة وانشأ بجوار المسجد مكتبا لتعليم القرآن الشريف وجعل له فقيها صالحا عالما يسمى الشيخ نجم من سلالة السيد العزازى وألزم الاهالى بتعليم أولادهم وكان رحمه الله يشدد عليهم فى ذلك حتى صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة يحسنون القراءة والكتابة وكل منهم يعـرف واجباته الدينية ومنهم نحو مائة وخمسين فقيها عالما ومنهم المرحوم الشيخ محمد حسين الهراوى من علماء الجامع الازهر والشيخ العارف بالله ابراهيم المصيلحى نفع الله به المسلمين .
فلما بلغت سنى خمس سنوات أرسلنى والدى الى المكتب المذكور فأقمت فيه ثلاثة أعوام ختمت فيها القرآن الشريف وعمرى اذ ذاك ثمانى سنين وبضعة شهور . فلما توفى والدى كفلنى أخى الاكبر المرحوم السيد محمد عرابى الذى توفى فى ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨ رحمه الله تعالى وأخذت عنه مبـادىء علم الحســاب وتحسين الخط مع ملاحظة بعض أشغال الزراعة ثم بدا لى المجاورة فى الازهر حين بلغت اثنى عشر عاما فكنت أجود القرآن على أقاربى واهل بلدى نهارا واتوجه الى بيت عمتى ليلا وتلقيت شيئا قليلا من الفقه والنحو وبعد سنتين رجعت الى بلدى

وكان الامير ســـعيد باشا قد تولى الحـــكومة الخديوية فى ١٥ شوال ســـنة ١٢٧٠ هـ وامر بدخول أولاد مشـــايخ البلاد واقاربهم فى العسكرية فدخلت من ضمنهم وانتظمت فى سلك الاورطة السعيدية المصرية بقناطر فم البحر فى شهر ربيع أول عام ١٢٧١ هـ وجعلت فيها وكيل بلوك امين من أول يوم صار انتظامى فى سلك العسكرية بعد امتحانى بحضور ابراهيم بك امير الالاى وحسن أفندى الالفى حكيم الالاى ثم ترقيت الى رتبة بلوك امين فى شهر رجب من السنة المذكورة بعـــد اعادة الامتحان مع الطالبين لذلك من غير واســطة أحد غير الجـد



وبعد عام نظرت فرأيت بعض الباشجاويشية المصريين ترقى الى رتبة الملازم الثانى وعلمت أن البلوك امين لايرتقى الا الى رتبة الصول قول اغاسى وفيها يفنى عمره . فجزعت من ذلك وذهبت الى امير الالاى وطلبت منه ترتيبى فى رتبة جاويش فى أورطة كانت افرزت لارسالهـا الى مدينة المنصـورة فسألنى الاميرالاى المذكور عن سبب ذلك حيث أن راتب الجاويش أقل ١٠ قروش من راتب البلوك امين وان كانت الرتبتان متساويتين فأفصحت له عما خالج فكرى وانى اذا صرت جاويشا سهل على الحصول على رتبة الباشجاويش ثم الانتقال الى رتبة ضابط . فعجب لذلك الخاطر وأمر فى الحال بجعلى جاويشا فمكثت فى هذه الرتبة سنتين

وفى تلك المدة حبب الى الاعتزال عن النـاس والاشـتغال بدراسة قوانين العسكرية مع التـدبير فى معانيهـا حتى أتقنت قانون الداخلية وقوانين تعليم النفر والبلوك والاورطة وبعض فصول من تعليم الالاى . وفى أوائل عام ١٢٧٤ هـ أمر راتب باشا بجمع صف ضباط فاجتمعنا حوله فى فسحة قصر النيل وبلغنا ارادة سعيد باشا وقال : «انأفندينا بلغه أنكم تقولون فيما بينكم كيف يصير ترقى الصف الضباط الجدد وتأخير من هو أقدم

منهم فى الرتب وانه امر ان لايترقى احد بعد الآن الابعد الامتحان علما وعملا فمن فاق أقرانه فى الامتحان ترقى الى الرتبة التى يستحقها ولو لم يلبث فى رتبته الاولى غير شهر واحد فمن أراد منكم الامتحان فليتقـدم الى الامام . فعنـد ذلك تقدمت أمام سعادته وأحجم الآخرون خوفا وهلعا ظنا منهم انه يريد معاقبة من يتظاهر بذلك . ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ عدد الراغبين فى الامتحان نحو ٣٠ شخصا فصار امتحانهم بحضوره تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا الفريق فكنت أول فائز فى الامتحان . ثم جمع الضبـاط والصف ضبـاط بمعرفة راتب باشا الذى كان وقتئـذ اميرالاى وطلبت أمام الجميع ووضع فى صدرى نيشان الباشجاويش وأعلنت ترقيتى الى هذه الرتبة . وبعد عام اى فى أول عام ١٢٧٥ صار امتحان الباشجاويشية بحضور سعادة راتب باشا أيضا والمرحوم اسماعيل سليم باشا الفريق فكنت الفائز الاول وترقيت الى رتبة الملازم ثانى التى كنت أدأب فى الحصول عليها منذ البدء. ثم بعد سبعة أشهر صار امتحان الضباط فى القصر العالى فكنت أول فائز فيه وكتب اسمى فى أول جدول الامتحان . ولما عرض الجدول على سعيد باشا أمر باعادة امتحانى وانتدب لذلك سليمان باشا الفرنساوى رئيس رجال العسكرية . فطلبت ثانيا الى الامتحان وكان يوما مشهودا وبعد الامتحان التمس سليمان باشا المشار اليه خروج الخديو الى ميدان الامام الشافعى رضى الله عنـه وهناك يصير امتحانى فى الميدان بأورطة من العساكر بحضرته فسـأله الخـديو عما يقصـده بذلك فقال انه مسـتحق لرتبة الميرالاى لان الذين ترقوا الى هـذه الرتبة من المـدارس الحربية لم يكونوا فى أجوبتهم مثله . فقال الخديو لايمكن ذلك. فقال له يحسن اليه على الاقل برتبة بكباشى فأبى عليه ذلك وقال يلزم ان يتدرج فى كل رتبة ليعرف واجباتهـا ومنحنى رتبة ملازم أول وأمر باعتبار جدول هذا الامتحان وأن يكون الترقى على مقتضاه بدون تجديد امتحان لمدة مجهولة وقبل

مضى شهرين رقيت الى رتبة يوزباشي والتحقت بمعيته . وفى اوائل سنة ١٢٧٦ ترقيت الى رتبة صاغقول أغاسى فى بنى سويف

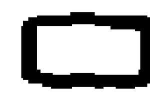


وفى عام ١٢٧٨ راى سعيد باشا أن الحكومة سقطت فى دين يبلغ مقداره ٦ ملايين جنيه مصرى وذلك يساوى ايراد الحكومة فى ذاك الوقت سنة كاملة تقريبا وكان ذلك المبلغ ثمن أسلحة ومهمات حربية وملابس وذخائر عسكرية موصى عليها فى معامل أوربا وردت بعد وفاته . فأمر برفت جميع الالايات وابقى أورطة واحدة كان فيها يوزباشي «مصطفى فهمى» وعلى فهمى باشا الذى نفى معنا الى سيلان . وأمر باستيداع الضباط بالمحافظات والمديريات على حسب رغبتهم ومن له بلد يتوجه الى بلده ويصرف لهم نصف مرتباتهم فى مدة استيداعهم ، وأمر ان تضاف مرتباتهم على الاطيان مؤقتا ريثما يتم تسديد الدين . فخص الفدان الواحد ٥٠ فضة أى قرش واحد وربع. وقد حصل ذلك فعلا ثم صار بيع الخيول ومأكولات العساكر ومفروشاتها وكذا الفضيات الموجودة فى الخزائن

وفى أوائل عام ١٢٧٩ هـ سافر سعيد باشا الى أوربا لمعالجة نفسه من داء السرطان وكان بمعيته محمد على باشا الحكيم المصرى الذى استشهد فى حرب الحبشة عام ١٢٩٣ هـ فصدر امره الى قائمقام خديو اسماعيل باشا «الخديو الاسبق» بطلب جميع الضباط المصريين من بلادهم واقامتهم فى قصر النيل ومداومتهم على التدريس فى القوانين العسكرية يقول فيه : «ان الضباط الوطنيين المترقين من تحت السلاح قد اشتغلوا بملازمة نسائهم وتركوا دروسهم ولو تركناهم على هذا الحال الذى لايؤول عليهم منه الا بالوبال لفقدوا العافية والنظر وصاروا عبرة لمن يعتبر . وبما اننا نحن الذين ربيناهم ورقيناهم وأظهرناهم فلا يصح لنا تركهم فى هذا الحال فقد اقتضت ارادتنا جمعهم من بلادهم وعدم تمكنهم من نسائهم حتى ولا

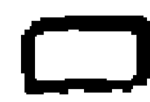
بالنظر اليهن بالعين والتشديد عليهم بمداومة التدريس ليلا ونهارا فى قصر النيل»

وبنـــاء على هذه الآراء صار اجتماعنـــا فى قصر النيل . وفى ربيع الاول انتدبت لفرز الصف ضباط فى الوجه القبلى وتعين معى حكيما للفرز المرحوم سالم باشا سالم الحكيم



ولما تولى الخديوية اسماعيل باشا وأمر بانشـــاء ٦ الايات بيادة كنت قائمقاما فى الالاى السادس وكان المرحوم خسرو باشا أميرالايا على الالاى الثانى ثم ترقى الى رتبة لوا باشا وكان متعصبا لابناء جنسه تعصبا أعمى وترتب قومندانا على الالاى ٥و٦ ولما وجدنى وطنيا قحا عظم عليه وجودى فى الالاى ، وسعى فى رفتى من الالاى لاجل اخلاء محلى لترقية أحد أبناء المماليك مصطفى افندى سليم بن سليم بك المشهور بالحجازى . ولاجل هـــذه الغـــاية صار يترقب الفـــرص للايقاع بى الى ان صدر امر الجهادية بامتحان الضباط لاجل استكمال النقصان . وبعد أن صار الامتحان وتحررت العرائض للمســتحقين وختم عليها من أرباب الامتحان وكنت من ضمن اعضاء مجلس الامتحان تحت رئاسة الباشا المذكور أرسل لى عريضة أحـــد الملازمين اســـمه ســـيد احمد أفنـــدى وطلب اخـــذ ختمى من عريضتـــه والختم على عريضـــة ضابط آخر من اورطـــة مصطفى أفنـــدى سليم البـكباشى لـكونه دائمـــا يباشر خدمة منزل البكباشى المذكور . فشق على هذا الامر وتوجهت الى مركز اللوا باشا واخبرته أن يعفينى من الختم على عريضة من لايستحق . فقـــال لابد من الختم لاجل خاطر البـكباشى المذكور . فقلت أن هذا ظلم لا أفعله واذا كنت تراعى خاطر البكباشى فى الظلم فأولى لك أن تراعى خاطر رئيسه فى العدل . وذكرته بعاقبة هذا الامر اذا تشكى المظلوم الى ديوان الجهادية وطلب امتحـــانه مع الآخر كمـــا حصـــل مثـــل ذلك

فى زمن سـعيد باشا وصـار عزل جميع أعضـاء مجلس الامتحان مع رئيسهم بسبب ظلم نفر مستحق رتبة أونباشي وهي أدنى رتب الصف ضباط . ثم ذكرته بعاقبة الظلم غدا بين يدي العزيز الجبار . فحنق لذلك حنقا شديدا وذهب الى ناظر الجهادية المرحوم اسماعيل باشا سليم واخبره انى لا أطيع له أمرا ولا أعبأ بأوامر ديوان الجهادية . وناظر الجهادية عرض للخديو الاسبق بذلك ثم صدر الامر برفتى من الجهادية بالقول انى صلب الراس شرس الاخلاق «وما بى والله من شراسة ولكن جبلنى الله سبحانه على حب العدل والانصاف وكره الظلم والاعتساف» فترتب على ذلك رفتى من الخدمة وحرمانى من المئتى فدان التى صـدر امر الخـديو بمنحها لكل من القائمقـامات الجهادية عقب مناورة عسـكرية حضرها الخديو . وكنت من ضمن من حضرها وكان أصدر ادارة سنية للمديريات بوجه بحرى بتسليم تلك الاطيان الى المنعم بها عليهم . فصدرت ارادة سنية ثانية بتوقيف التسليم فيما يخصنى وقد حصل . ولكن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون فانتقم بعدله ممن ظلم من غير امهال وذلك أنه صدر امر الخديو فى الاسبوع الذى رفت فيه بالغـاء الالاى ٥و٦ اى اللواء الثالث وأرسـل خسرو باشا الى السودان واصيب حسين باشا الطوبجى بالفالج ومحمد بك أمين القبرصلى بالفالج ايضا حتى ماتا وأمين بك رئيس قلم تركى بديوان الجهادية انتحر بعـد تكبيله فى الحديد وارسـاله الى السودان وهكذا كل من اشترك فى هذه المظلمة أصيب بقارعة عظيمة . وأما مصطفى سليم المذكور فقد رفت أيضا واقام فى بيته مرفوتا نحو عشر سنين حتى أذله الله . وأما اسماعيل سليم باشا ناظر الجهادية فانه مات فى حرب كريد



ولما تولى الامير توفيق باشا منصب الخديوية وحضر الى الاسكندرية انعم على برتبة امير الاى على الالاى الرابع فتوجهت الى راس التين وقدمت شكرى وامتنانى ثم جعلت من ضمن

ياوران الخديو . ولما تولى عثمان رفقى باشا الشركسى نظارة الجهادية سولت له نفسه أن يمنع ترقية المصريين من العساكر العاملين فى الالايات والاكتفاء بما يتخرج من المدارس الحربيـة وصدرت أوامره بذلك . ثم اردفها باحالة عبد العال حلمى بك اميرالاى السودان على ديوان الجهادية ليكون معاونا وكان عمره اذ ذاك اربعين سنة ليس الا ورتب بدله خورشيد نعمان بك من جنسه على الالاى المذكور وكانت سنه فوق الستين وهو ضعيف لايقدر على الحركة العسكرية . وقد رفت أحمد بك عبدالغفار قائمقام السوارى وعين شاكر بك طمارة من جنسه بدله وهو طاعن فى السن ثم ختم تلك الاوامر وصار قيدها بدفاتر الجهادية. وكنت لا اعلم بشىء من ذلك أصلا. وقد دعيت الى وليمة وسماع تلاوة القرآن الشريف بمنزل المرحوم نجم الدين باشا لمناسبة عودته من اداء فريضة الحج الشريف ولما وصلت الى منزل الداعى وجدته غاصا بالذوات العسكرية وغيرهم فجلست بجوار نجيب بك وهو رجل كردى الاصل وبجانبه اسماعيل كامل باشا الفريق وهو شركسى الاصل ولكنه يتظاهر بحب العـدل والانصاف فأخبر نجيب بك بما حدث وانه نصح ناظر الجهادية بالاعراض عن هذا الاجحاف فلم يصغ لقوله ولذا فهو ساخط ومضطرب ثم أوعز اليه أن يخبرنى بما سمع منه . فأخبرنى نجيب بك بحقيقة الحال همسا فى اذنى فقلت لاسماعيل باشا كامل : «احق هذا ؟» فقال : «نعم واعطيت الاوامر الى الكتبة للاجراء على مقتضاها» فقلت له : «ان تلك لقمة كبيرة لايقوى ناظر الجهادية عثمان رفقى على هضمها»

وبعد تناول طعام المأدبة حضر لى أحد الضباط واخبرنى بأن كثيرا من الضباط ينتظروننى بمنزلى وفيهم عبد العال بك حلمى وعلى بك فهمى . فأسرعت اليهم وهم فى هياج عظيم وقد بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأونى اخبرونى بما سمعته من المرحوم اسماعيل باشا كامل . فقلت لهم : «قد سمعت من غيركم فماذا تريدون ؟» فقالوا : «انه ليس

ذلك فقط بل انه قدكثر اجتماع الشراكسة ـ بمنزل خسرو باشا الفريق ـ صغيرا وكبيرا وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك فى كل ليلة بحضور عثمان رفقى باشا ويلعنون حزبك ويقولون قد حان الوقت لرد بضاعتنا وأنهم لايغلبون من قلة وظنوا أنهم قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل أولئك المماليك» . وقد تحققوا ذلك ممن يوثق بخبره فقلت لهم : «وماذا تريدون اذا ؟» فقالوا : انما جئناك لاخذ رأيك فيما دهمنا من الخطب العظيم» . فقلت لهم : «أرى ان تطيبوا نفوسكم وتهدأوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا لهم النظر فى مصالحكم وهم ينتخبون لهم رئيسا منهم يثقون به كل الوثوق ويطيعون أمره ويحفظونه بمعاضدتكم» . فقالوا كلهم : «قد فوضنا اليك هذا الامر وليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك» . فقلت لهم : «لا .. انظروا غيرى وأنا أسمع له وأطيع وانصح له جهدى» فقالوا : «لانبغى غيرك ولا نثق الا بك» . فقلت : «ارجعوا لانفسكم فان هذا أمر عصيب لايسع الحكومة الا قتل من يقوم به أو يدعو اليه» فقالوا : «نحن نفديك ونفدى الوطن بأرواحنا» فقلت لهم : «أقسموا لى على ذلك» فأقسموا . وفى الحال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها : الشكوى من تعصب عثمان رفقى لجنسه والاجحاف بحقوق الوطنيين ، والتمست فيها :

أولا : تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة المصرية تنفيذا للامر الخديو الصادر أبان توليته

ثانيا : ابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفا تطبيقا لمنطوق الفرمان السلطانى ..

ثالثا : تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواة بين جميع أصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب

رابعا : تعيين ناظر الجهادية من ابناء البلاد على حسب القوانين العسكرية التى بأيدينا .. ثم تلوت هذه العريضة على مسامع

الجميع فوافقوا كلهم عليها فأمضيتها بامضائى وختمتها بختمى وختم عليهـا أيضـا على فهمى بك أمير الاى الحرس الخديو وعبد العال بك أمير الاى السودان

ولما تم ذلك صار ترتيب مايلزم لحفظ الذات الخديوية ، وحفظ أعضاء العائلة الخديوية وحفظ الوزراء والامراء الوطنيين اذا حدث أى حادث من الضباط الشراكسة الطامعين فى التغلب على البلاد مع ترتيب اللازم لحفظ البيوت المالية وبيوت التجار من الاجانب والوطنيين من مطامع الرعاع ، وعملنا لحفظنا أيضا من بطش الحكومة اذا أرادت الايقاع بنا

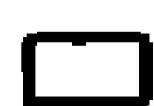
وارفض الاجتماع على ذلك . وما دعانا الى طلب انشاء مجلس نواب للامة ينظر فى مصالحهـا الا ما حل بالمرحوم اسـماعيل صديق باشا الحائز لرتبة المشـيرية التى من لوازمها حفـظ صاحبها ولو باستعمال السلاح فى عهد الخديو الاسبق اسماعيل باشا بسبب كلمة حق قالها ، وما حل بحضرة السيد حسـن موسى العقاد بسبب كلمة عدل أراد بها مساواة الاهالى الذين دفعـوا للحـكومة ...ر...ر١٧ من الجنيهـات المصرية باسم المقـابلة و...ر...ر٥ أخرى باسم السهام بالاجانب أصحاب الديون ، وما حصل لكثير من القتل والخنق فى السجون بغير حق ولاتحقيق بل بمجرد ظلم واجحاف واستيلاء على الناس بالقهر والجبروت بما تأباه النفوس الشريفة ..

وفى ضحوة الغد ذهبت الى ديوان الداخلية وقدمت العريضة المذكورة الى دولة رئيس النظار ، فقال لنا : «سأنظر فى هذا الامر وأتكلم مع ناظر الجهادية»



وبعد يومين ذهبت الى بيت الرئيس المذكور ومعى الاميران المذكوران فلما قابلناه وسألناه عما تم فى هذا الامر قال : « ان هذا الطلب مهلك وهو أشد خطرا من العرض الذى قدمه أحمد أفندى فنى الذى أرسل بسببه الى السودان» . ان أحمد

افندى فنى كان كاتبا بديوان المالية فطلب المساواة مع خدمة الديوان المذكورلظلم حاق به، فكان جزاؤه النفى الى السودان فأجبته : «بأننا لم نطلب الاحقاوعدلا وليس فى طلب الحق من خطر، على أننا نعتبرك أبا للمصريين فما هذا التعريض وماهذا التهديد» فقال: «انه ليس فى البلادمن هوأهل لمجلس النواب» فقلت له : «عجبا أنك مصري وباقي النظار مصريون والخديو أيضا مصرى أتظن أن مصر ولدتكم ثم أعقمت لا بل فيها العلماء والفضلاء والنبهاء والبلغاء ، وعلى فرض أنه ليس فيها من يليق كما ظننت أفلا يمكن انشاء مجلس يستمد معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية وبعد خمسة أعوام يتخرج منها رجال يخدمون الوطن بصائب فكرهم ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية» فانبهر لذلك وقال لنا : «سننظر بدقة فى طلباتكم هذه» فانصرفنا على ذلك



ولما كان غرة ربيع الاول سنة ١٢٩٨ هـ انعقد مجلس تحت رياسة الخديو بعابدين حضره جميع الباشوات المستخدمين والمتقاعدين وكلهم من الترك والشراكسة الا قليلا من الاوربيين وقرروا فيه لزوم توقيف الثلاثة أمراء الالايات الذين أمضوا على العريضة المتقدمة الذكر ثم اجراء محاكمتهم فى مجلس مخصوص مختلط من رجال الجهادية . فقال رئيس النظار رياض باشا : « انى ارى انه اذا صار توقيف الامير الايات المذكورين يلزم أيضا توقيف ناظر الجهادية لانه فى عدم توقيفه مثلهم خطر عظيم وذلك لما رأيته فيهم من الجراءة» فلم يوافق الخديو وتعهد ناظر الجهادية بأنه ضامن لاخذنا بسهولة

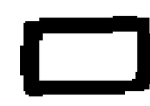
وفى الحال دعى المرحوم أحمد خيرى باشا الشركسى وكان مهردار الحضرة الخديوية وصاحب الرأى النافذ فحضر وتلا بالمجلس المذكور امرا فحواه : «أن هؤلاء الثلاثة أمراء أحمد عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى مفسدون فى الارض وانه يقتضى توقيفهم من الخدمة ومحاكمتهم على افسادهم

ومجازاتهم بأشد انواع الجزاء فى مجلس عسكرى فوق العادة تحت رياسة ناظر الجهادية ويكون من اعضائه «ستون باشا» رئيس أركان الحرب ، وهو أمريكى ، وناظر المدارس الحربية «أرفى باشا» وهو فرنساوى ، فوقع الخديو عليه وسلمه الى ناظر الجهادية عثمان رفقى باشا وارفض المجلس بعد ذلك . وفى المساء أرسل ناظر الجهادية لكل منا تذكرة، يدعونا فيها للحضور الى ديوان الجهادية بقصر النيل فى غد يوم ٢ شوال سنة ١٢٩٨ لنشهد الاحتفال بزفاف شقيقة الحضرة الخديوية جميلة هانم . وكان وقت زفافها لم يحن بعد فتيقنا أنه يريد خدعتنا والبطش بنا . فالتجأنا الى جانب الحق سبحانه وتعالى واخذنا حذرنا ثم أعددنا ما يلزم لنجاتنا اذا اقتضت الحال ذلك . وحين حلول الوقت المعين ذهبنا الى ديوان الجهادية فوجدناه غاصا بجمع الشراكسة من رتبة الفريق الى رتبـة الملازم الثـانى وجميع شبانهم بأيديهم الطبنجات ذوات ٦ طلقات مملوءة بالخراطيش وكلهم فى فرح ومرح ولا فرح هناك ولا زفاف . فلما حضرنا دعينا للحضور أمام مجلس الهلاك فأجبنا طائعين وتلى الامر الخديوى الآنف ذكره ثم أمرنا بتسليم سيوفنا فاطعنا هـذا الامر ومايعقبه من السجن وهو مخالف للفظ الحكم بالتوقيف. ثم تعين بحضرتنا من يستلم امرة الالايات ، وساقونا الى السجن فى قاعة بقصر النيل . فمررنا بين صفين من الشراكسة المسلحين . وبعد اقفال باب السجن جاء خسرو باشا وكان رجلا صلفا جاهلا فوقف خارج السجن وقال : «ايه زنبيل لى هر فلر» يعنى فلاحين شغالين بالمقاطف

ولما أقفل علينا باب الغرفة قال على فهمى بك أحدنا : «والله لانجاة لنا من الموت وأولادنا صغار» وجزع جزعا شديدا ، فأردت تثبيته ، وقلت له متمثلا بقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

ولرب نازلة يضيق بهـا الفتى ذرعا وعند الله منهـا المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت اظنها لاتفـرج

فلا وأبيك ما كان الا هنيهــة حتى جاءت أورطتــان من الاى الحرس الخديوى بقيادةالشهم الهمامالبكباشيمحمدأفنديعبيد وأحدقوا بديوان الجهــادية ثم أسرع بعض الضبــاط والصف ضباط وفتحوا الابواب وأخرجونا من الســجن وقد فر ناظر الجهادية الغشوم هاربا وكذا رجالالمجلس وغيرهم منالمجتمعين



ولما فرج الله علينا أسرعت الى العساكر وحذرتهم وأنذرتهم وقلت لهم : «لاتمدوا أيديكم بسوء الى أحد من الجراكسة فانهم موالينا واخواننا استأثروا بأنفسهم علينــا ونريد الانصــاف والمساواة معهم ليس غير» . ثم نظرت فوجدت بجانبياسماعيل كامل باشا،انفت نفسه أن يفر مع الفارين فأخذته بيده وضممته الى صدرى أمام العساكر ، وقلت : «هذا جركسى كما تعلمون ولكنه أخي حرام على دمه وماله وعرضه ، وكذلك غيره من الجراكسة » فانصرفوا بانتظام علىبركة الله ثم سرنا جميعا الى قشلاق عابدين وكانت الاورطة الاولى من الحرس الخديوى حكمدارية البكباشي المرحوم أحمد افندى فرج واقفة أمامسراى الخديو لحفظها ، كما أمرت بذلك من قبل اميرالاى الحرس على فهمي بك ، ولما تم وجود عساكر الالاى المذكور أمر أمير الالاى العساكر بحمل اسلحتهم بحركة «سلام دور» وعزفت الموسيقي بالسلام الخديوىونادوا جميعا«يعيشالخديو»ثلاثاوذلككاناشارة واعلانا للقوم بأننا على اخلاصنا للحضرة الخديوية وكان جميع الذوات الذين كانوا بديوان الجهــــادية التجــأوا الى حمى الخديو . ثم انهم تشاوروا فيما بينهم فقال «ستون باشا» الامريكي :«هذا عصيان ظاهر والواجب حصر القشلاق المذكور بالطوبجية وآلايات البيادة ويطلب من هذا الالاى تسليم الثلاثة أمراء فان أبوا تضرب عليهم المدافع وتمطر عليهم البنادق نارا حامية حتى يضطروا الىالتسليم»،فاستحسنالجميع ذلكالراى الامريكي ولكن ابتدره اسماعيل كامل باشا المذكور آنفا وقال :

«أنا أعتقد اتفاق جميع أصناف العساكر على رأى واحد فلا يجدى هذا الرأى نفعا »..

وفى أثناء مفاوضاتهم حضر آلاى السودان من طره وانضم الى آلاى الحرس ثم عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى وهتفوا جميعا : «افندمز جوق يشا» وأنا العاجز الضعيف كتبت الى وكيل فرنسا السياسى فى مصر الكونت «دورنج» من غير أن يكون لى به ولا بغيره من قناصل الدول الاوربية سابق معرفة ولا مقابلة التمس منه مخابرة باقى قناصل الدول بما حصل بيننا وبين حكومتنا من الخلاف وأطلب منهم التوسط فى اصلاح ذات البين . ثم بتنـــا على ذلك وفى صباح الغد حضر لنا أحمد خيرى باشا مهردار الخـديو ومعه محمود سـامى باشا ناظر الاوقاف من قبل الخديو وقالا لنا : «ماذا تريدون ؟» فقلنــا : «العدل والمساواة» . قالا : «ثم ماذا ؟» قلنا : «استبدال ناظر الجهادية برجل وطنى . وتشكيل مجلس نواب للامة ينظر فى مصالحها ، وتعديل قوانين العسكرية ، وابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفا ونحن على طاعتنا للحضرة الخديوية» . فذهبا الى الخديو ثم رجعا وقالا : «قد عزل عثمان رفقى فمن الذى تريدونه ناظرا للجهادية ؟ «قلنا» الذى يختاره الخديو من الوطنيين . فذهبا وعادا ثانية وقالا : «ان الخديو يقول اختاروا أنتم من ترضونه حتى لايحصل منه مثل ما حصل من عثمان رفقى» فقلنا : «قد اخترنا هـذا محمود سـامى باشا وهو من أولاد المماليك الاول ولكنه صدق معنا ولم يقصد الغدر بنا» ثم صدرت الاوامر الخديوية باعادة كل منا الى آلايه وعزل عثمان رفقى وصار تولية محمود سامى على نظارة الجهادية مع نظارة الاوقاف وأخذ فى سن القوانين العادلة وتعديل القوانين الاصلية وتنقيحها

ثم لما شاعت الاراجيف الكاذبة فى أوربا بخروج العســاكر المصرية عن الطاعة حضر من الحكومة العثمانية وفد برئاســة المشير على نظامى باشا وبمعيته أحمد راتب باشا «والى الحجاز

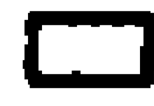
حينئذ» لتحقيق أمر العصيان فرده الخديو قائلا : «ان عساكرى على طاعتى وأن ليس ثم عصيان» . وبعد ذلك اجتهدت الحكومة فى غدرنا وأخذنا على غرة أو بحيلة من ضروب الحيل ولما لم يوافقها ناظر الجهادية محمود سامى باشا على نواياها صار عزله بتذكرة من رياض باشا رئيس النظار وتشدد عليه بأن لايجتمع بنا ولايقيم بالعاصمة وتعين بدله داود باشا يكن وهو عديل الخديو ولكنه رجل جاهل أحمق مشؤوم فأسرع باصدار أوامر لايستطاع قبولها فردت اليه ونفرت القلوب منه . فكتبت له فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ بأننا سنحضر بجميع العساكر الموجودين فى القاهرة الى ساحة عابدين لعرض طلباتنا على الخديو فى الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم الجمعة الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وكلفته عرض ذلك على الخديو ثم كتبت الى جميع قناصل الدول بذلك وأعلنتهم بحفظ جميع رعاياهم فلا خوف عليهم ولا على أموالهم . وفى الوقت المعين اجتمعت الالايات البيادة والسوارى والطوبجية فى رحبة عابدين وكان ما هو مسطر فى بطون التاريخ وهو اسقاط الوزارة وترتيب مجلس النواب وابلاغ الجيش الى القدر المحدد بالفرمان السلطانى . وقد حبانا الخديو باجابة تلك الطلبات العادلة . وقد تعرض لنا المستر كوكسن قنصل انجلترا بالاسكندرية حينذاك وهددنا فلم نعبأ بتهديده لاعتمادى على صدق عزيمتى وطهارة ذمتى . ثم صار استدعاء المرحوم شريف باشا من الاسكندرية وتعيينه رئيسا للوزارة على حسب اختيارنا له وتعين محمود سامى باشا ناظرا للجهادية ثانية وقد توقف شريف باشا فى قبوله ٧ أيام ثم رضى بعد ذلك وصار توظيفى وكيلا للجهادية . وفى تلك النظارة صارت الامتحانات وترقى كثير من الباشاوات وأمراء الآلايات والقائمقامية وغيرهم من جميع الرتب واستكملت الالايات وانشئت القوانين العادلة وتعدلت الرواتب والماهيات بنسبة كل رتبة الى ما دونها . وصرفت

الحقوق الموقوفة من زمن مديد وأنشىء مجلس النواب وجعل رئيسه سلطان باشا واستقامت الامور وحين ذاك عرضت على رتبة لواء «باشا» فرفضتها لئلا يقال انى انما اشتغل لمصلحتى فقط وبقيت فى رتبة الميرالاى مدة وكالتى للجهادية

وأما رفقائى عبد العال حلمى وعلى فهمى فقد نالا رتبة الباشوية الرفيعة

ثم أن مجلس النواب قرر فى لائحته الاساسية أن يكون له الحق فى نظر ميزانية الحكومة ومعرفة كيفية ايرادها ومصروفها بشرط عدم الخروج عن دائرة التعهدات الدولية وقانون التصفية فلم يجبهم المرحوم شريف باشا لذلك لانه سامحه الله اخذ راى السير مالت وكيل انجلترا السياسى فى مصر وقنصل فرنسا أيضا فأشارا عليه بعدم قبول لائحة المجلس فأصر مجلس النواب على الطلب فى تنفيذ لائحتهم فلم يوافقهم وقدم استعفاءه واستعفت هيئة نظارته ثم تشكلت هيئة جديدة تولى رئاستها محمود سامى باشا وجعل من رجالها حسن باشا الشريعى وسليمان باشا أباظة وعبد الله باشا فكرى ومحمود باشا فهمى ومصطفى باشا فهمى . وجعلونى أيضا ناظرا للجهادية لاجل اطمئنان خاطر العساكر الذين لايأمنون غيرى فى ذلك الوقت فقبلت ذلك . ثم انعم على برتبة لواء «باشا» وكنت لا اريد . ولكن قالوا انه لايليق ان يكون ناظر الجهادية برتبة اميرالاى وفى نظارته اللواءات والفرقاء . فقبلتها للضرورة وشكرت الخديو وقد انتظمت الامور وهدأت الاحوال وصارت العساكر فى أمن من الغدر . ولكن أوربا لايروق فى نظرها انتظام حكومات الشرق فأقلقوا حكومة الدولة العلية فأرسلت وفدا مندوبا من طرفها تحت رئاسة المشير المرخص درويش باشا لتحقيق مايقال من العصيان فجاء درويش باشا وبحث الامر وكتب للسلطان بأن العساكر على الطاعة وكذلك كتب الخديو بالحقيقة فأرسل السلطان الى الخديو اربعمائة

نيشـــان من أنواع مختلفـــة للانعـــام على المستحقين من ضباط العساكر وأنعم على بنيشان الدرجة الاولى المجيـدى وحضر بوابور مخصوص يحمله سعادة سليم بك ياور السلطان فأبيت استلام النيشـــان المذكور الا من الخديو . ثم كتبت تلغرافا الى «المابين الهمايونى» برفع تشكراتى للسلطان



وفى شهر مايو سنة ١٨٨٢ جاءت الاساطيل الحربية الانجليزية والفرنساوية الى ثغر الاسكندرية وتقدمت للحكومة المصرية لائحة مشتركة «انذارا مشتركا» من دولتى فرنســا وانجلترا مجحفة باستقلال الحكومة المصرية وحقوق الدولة العلية وتقدمت نسخة منها للخديو فرفضها مجلس النظار وقبلهـــا الخديو فاستعفت النظارة من وظائفها . وهاجت الافكار وطاشت العقول الزكية واجتمع النواب والقناصل حولى يطلبون منى حفظ الامن والراحة العموميـــة فقلت لهم : «لاقدرة لى على ذلك لانى قد استعفيت» . فذهب وفد من مجلس النواب وطلب من الخديو اعادتى الى نظارة الجهادية حفظا للنظام والراحة فصدر الامر الخديوى باعادتى الى النظارة المذكورة ثم دعيت لمقابلة الخديو فوجدت عنـــده جميع قنـــاصل الدول ما عدا وكيـــل انجلترا السياسى وبحضرته درويش باشا المندوب السلطانى فأخذ على تعهدا بحفظ رعايا الدول الاجنبية وصار اعلان جميع مصالح الحكومة بذلك

وفى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ حدثت حادثة اسكندرية المشؤومة بتدبير ذوى الغايات لاجل تشويه اعمالى فى نظر أوربا وخدش تعهدى بالحفظ والامن العمومى فأسرعت بارسال العساكر الى الاسكندرية حتى ملئت شوارعها بالعساكر وانتهت الفتنة التى ابتدأ بها أحد المالطية من التبعية الانجليزية مع أحد حمارة الاسكندرية بايعاز وتعليم ثم صار الشروع فى تحقيقها فى مجلس

مختلط تحت رئاسة «ذوالفقار باشا» محافظ الثغر ومن الغريب العجيب أنه لم يبحث أصلا فى الدماء التى سفكت بل كان البحث قاصرا على معرفة مقدار البضائع التى انتهبها الرعاع ليس غير. وبعد ذلك تشكلت الوزارة بمعرفة الخديو تحت رئاسة راغب باشا وكنت من رجالها أيضا ثم انتقل الخديو ودرويش باشا الى الاسكندرية . وفى يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وردت افادة الى قومندان عساكر الاسكندرية من طرف اميرال الاسطول الانجليزى يقول فيها انه جارى تهديد العمارةالانجليزية بترميم القلاع والاستحكامات وانه يطلب تخريب القلاع وهدمها بأيدى العساكر المصرية والا ضرب الاسكندرية وخرب المدينة ودمرها. فعقد لذلك مجلس تحت رئاسة الخديو حضره درويش باشا المندوب العثمانى وقدرى بك من رجال الوفد المذكور وجميع النظار وكبار الذوات المتقاعدين وبعد المذاكرة اجمعوا على رفض هذا الطلب والاستعداد للحرب ولكن لايبدأ بها الا بعد اطلاق ثلاث قنابل من الاسطول الانجليزى حتى لانكون نحن البادئين بالحرب فأعطيت الاوامر بذلك



وعند اشراق يوم ١٢ يوليو بدات مراكب الانجليز بالضرب على مدينة الاسكندرية وجميع سواحلها وانتشب القتال بين مصر والحكومة الانجليزية . وأما الاسطول الفرنساوى فاعتزل جانبا كالمتفرج . وضربت الطوابى حتى تهدمت استحكاماتها . وفى أثناء الحرب خرج سكان المدينة مهاجرين منها خوفا وهلعا وفى اليوم الثامن انهزمت العساكر فرجعت الى كفر الدوار واتخذت خطا دفاعيا وتراجع المنهزمون الى. وفى ١٤ يوليو ارسلت القطار الخديوى لاستحضار الخديو ومعيته ومن معه من النظار ولما وصلت القطارات الى سراى الرمل لركوب الخديو ورجوعه الى عاصمة بلاده أبى أن يعود وأسرع فى الذهاب الى

راس التين بعائلته ومن بمعيته وانحاز الى العدو المحارب لبلاده. واستدام الحرب الى أن قدر الله تعالى شأنه بنهايتها فى معركة التل الكبير كما هو معلوم للجميع وتم الامر بنفينا الى جزيرة سيلان ..

وغنى عن البيان . والله الذى لا اله الا هو فالق الحب وبارىء النسمة انى ما خدمت بذلك دولة انجلترا ولا فرنسا ولا كنت آلة لدولة ما ولا للخديو الاسبق اسماعيل باشا ولا لحليم باشا ولا أوصيت بمساعدة الدولة العلية . وانما كنت أجتهد فى حفظ استقلال بلادى مع نيل الحرية والعدل والمساواة لاهل بلادى المساكين ، وانا خادم لهم وناديت سرا واعلانا بتأييدها ، ولكن المقادير الالهية غالبة فانعكست المرئيات وتوالت الصعوبات لنفاذ ما هو كائن فى علمه أزلا سبحانه وتعالى

خادم وطنه العزيز
احمد عرابى الحسينى المصرى



محمود سامى البارودى

١٢٥٦ – ١٣٢٢ هـ الموافق ١٨٤٠ – ١٩٠٤ م

لم تخل مصر فى عصر من عصورها القديمة أو الحديثة من طبقــة فى أهلها من « المولدين » وهم المولودون فيها من آباء غرباء حتى فى عهد الفراعنة . وتوالى فى وادى النيل طبقات شتى من المولدين ممن نزح اليها على اختلاف عصورها وفيهم الفرس واليونان والرومان والعرب والترك والبربر والجركس والارمن والديلم وغيرهم . وكل فئة اذا طال مكثها عدت نفسها وطنية وعدت القادمة بعدها غريبة . وآخر فئة توالدت فى مصر الجركس والاتراك من بقــايا الممــاليك . والغالب فى المولدين من هؤلاء غموض منشئهم لان رباط العائلة كان ضعيفا فيهم والرجل منهم انما ينتسب الى مالكه أو رئيسه أو يعرف بلقب يلقبونه به . فلم يعد تحقيق تلك الاصول ممكنا فيهم

والبارودى صاحب الترجمــة من مولدى الجركس بمصر ويؤخذ من صحيفة كانت نشرتها مجلة المنار انه ينتسب الى نوروز الاتابكى الملكى الاشرفى ولعله أحد رجال الملك الاشرف قايتباى المحمودى المتوفى سنة ٩٠١ هـ ونستغرب ثبوت هذه النسبة للاسباب التى قدمناها من ضياع اسم العائلة عندهم حتى نوروز هذا فانه لا ينتسب الى ابيه وانما يعرف بانتسابه الى الملك الاشرف ومنها اسمه « الملكى الاشرفى » . وقد كان فى هذا العصر جماعة يعرفون بهذا الاسم كل منهم ينتسب الى صاحبه مثل نوروز المنصورى نسبة الى الملك المنصــور ونوروز التمر علائى الاشرفى برسباى نسبة الى الملك الاشرف



محمود سامى البارودى

برسباى وقس على ذلك . وقد بلغنا نقلا عمن عرف البارودى وعاشره انه كان شديد الحرص على معرفة نسبه وتتبعه الى أصله فبذل مبلغا طائلا من المال فى سبيل البحث عنه فى انحاء القطر ومراجعة النصوص والسؤال من أهل العلم والسن — قالوا انه انفق فى ذلك نحو ثلاثة آلاف جنيه

على اننا لا نرى لصحة هذه النسبة البعيدة أو فسادها دخلا فى تقدير فضل الرجل لان المرء باصغريه وبما يحدث على يديه . ولكن المشهور ان الفقيد هو محمود باشا سامى ابن حسن بك حسنى وكان ابوه هذا من امراء المدفعية فى الجيش المصرى وجده عبد الله بك الجركسى من الكشاف فى أوائل عهد محمد على . والكاشف يشبه مأمور المركز اليوم. وانما أضيف الى اسمهم لفظ البارودى نسبة الى اتياى البارد لانها كانت فى التزام أحد اجداده فى عصر الالتزامات

نشأته الاولى

ولد صاحب الترجمة فى سراية بباب الخلق سنة ١٨٤٠ وتلقى مبادىء العلم فى المدارس الحربية التى انشأها محمد على وخرج من المدرسة سنة ١٨٥٥ فى أوائل ولاية سعيد باشا . وكان من نعومة اظفاره ميالا الى الادب والشعر فرغب فى آداب اللغة العربية فاحرز منها شيئا كثيرا وظهرت ثمار قريحته وامتاز شعره بالسهولة والبلاغة من عهد شبابه على قلة النابغين من الشعراء فى ذلك الحين . فهو من اقوى أركان النهضة الشعرية الاخيرة بمصر

وكان مع ذلك كبير المطامع فى طلب العلى — وذلك نادر فى الشعراء لرقة احساسهم ولطف مزاجهم وانصراف قرائحهم الى الخيال — ولم يبال بركوب البحار فى طلبها فرحل الى الاستانة يلتمس بها منصبا . وكان يتكلم التركية وهى لغة أهل الطبقة العليا فى ذلك الحين . فانتظم فى كتابة السر بنظارة

الخارجية . وكانت اللغة التركية يومئذ فى ابان نهضتها فتبحر فى أدبها وشعرها حتى نظم فيها القصائد وتعلم الفارسية لمطالعة آداب الفرس واشعارهم ونفسه تحن الى مصر حنين كل من يقيم فيها ويتعود ماءها واقليمها . فاتفق أن الخديو اسماعيل باشا شخص الى الاستانة سنة ١٨٦٣ على اثر ارتقائه الاريكة الخديوية فدخل صاحب الترجمة فى بطانته ورجع معه الى مصر وعاد الى الخدمة العسكرية فترقى فى سنة واحدة الى رتبة بكباشى وانتدب مع جماعة من الضباط لمشاهدة بعض الحركات العسكرية فى فرنسا وسافر منها الى لندره وعاد الى مصر فرقاه الخديو سنة ١٨٦٥ الى رتبة قائمقام فى آلاى الفرسان ثم الى رتبة اميرالاى

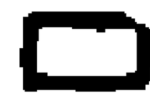
سيرته السياسية

ولو أردنا تفصيل ما تقلب فيه من المناصب لطال بنا الكلام فنقول بالاجمال انه ذهب فى حملة الجيش المصرى الذى ارسلته مصر لمساعدة الدولة العلية فى اخماد ثورة كريد سنة ١٨٦٨ ولما رجع الحق بالحرس الخديوى (الياوران) فأحبه اسماعيل وزاده من قربه فجعله كاتب سره الخاص . ثم عاد الى العسكرية بعد سنتين وكان الخديو ينتدبه فى كثير من الامور الهامة الى الاستانة وغيرها . حتى اذ نشبت الحرب بين الدولة العلية والروس سنة ١٨٧٧ أنفذت مصر نجدة من جيشها كان المترجم فى جملتها مع فرقته وعند رجوعه رقى الى رتبة لواء . ولم تمنعه رتبه العسكرية من الخدمة فى المناصب الادارية فعين سنة ١٨٧٩ مديرا للشرقية . واضطربت مصر يومئذ وهى السنة التى اقيل فيها اسماعيل فسبق اقالته اثارة الخواطر بالمنافسة التى جاشت فى نفوس الامراء على الولاية وبما كان من تدخل الدول الافرنجية بشؤون مصر الادارية فانتدبت الحكومة صاحب الترجمة لرئاسة الضبطية فحفظ الامن وهدأ الخواطر . فلما اقيل

اســماعيل وتولى الحكم توفيق باشــا الخديو السابق أعاده الى المناصب الادارية فجعــله وزيرا وقلده نظارة الاوقــاف فأصلح شؤونها ونظمها ــ والمرء يتقلب فى مناصب شتى ولا بد من شىء يعلق به ذهنه مما ترتاح اليه نفسه أو يدفعه الى ميله ، ولهذا الميل دخل كبير فى شؤون الامم لان الملك او الامير اذا كان ميالا مثلا للعلم نشط أهله ورفع شأنه واذا كان من اهل اللهو رغب الناس فى الملاهى . ويقال نحو ذلك فى سائر المناصب الادارية . وقد تقدم انالمترجم كان مغرما منصغره بالعلم والادب فاهتم فى أمر الكتب المبعثرة فى المساجد وجمعها فى مكان واحد فلما اخذ المرحوم على باشا مبارك فى انشاء دار الكتب الملكية كانت هذه الكتب من جملة ما نقلوه اليها

فلما تحركت الخواطر وهبت النفــوس فى الثورة العرابية كان لصاحب الترجمة شأن كبير فى ذلك والنــاس بين متهم ومبرىء . وخلاصــة رأينــا فى المترجم انه كان مــن جملة المنشــطين للحــزب الوطنى فى مطالبهم سرا لانه كان ناظــرا للاوقاف كمــا تقــدم فكان يحضر مجلس النظار وهواه مع العرابيين وهو يعتقــد ان مطالبهم عادلة ــ ورجــال المطامع يغتنمون هذه الفرص لنيل المناصب الكبرى وكثيرا ما كانت أمثال هذه الحركات سببا فى انتقال الملك من دولة الى دولة اذا وافقت الاحوال وتوفرت الرجال . وفى تاريخ مصر أمثلة كثيرة من هذا النوع . أما المترجم فقد كان طامعا فى منصب الوزارة وما وراءه فكان ينقل الى عرابى ورفاقه من قرارات ذلك المجلس وابحاثه ما يتعلق بهم ليحذروه أو يتهيأوا للقائه مما يطول شرحه . وقــد نجح فى ما كان يؤمله فتولى نظارة الجهادية ثم رئاسة النظار . فكان له النفــوذ الاعظم فى تلك الثورة وأما عرابى فقد تصدر لها وتظاهر بها عن صدق نية وبساطة ــ وهى فى الحقيقة نهضة سياسية عمرانية لو احسن أصحابها استخدامها ـ لو تصرفوا فيها بالحكمة والتؤدة لعادت بالنفع على الحــكم بها والاهــالى مليا فى

فلما دخل الانجليز مصر وقبضوا على العرابيين وحاكموهم كان صاحب الترجمة من جملة الذين حكم عليهم بالنفى الى سيلان مع زعيم الثورة وما زال هنـاك حتى ارجع فى جملة الذين ارجعوا واختصه الخديو بارجـاع حقـوقه ورتبته . وظل بين اهله وذويه حتى توفاه الله فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٤ وقد كف بصره



هذه خلاصة سيرته السياسية وأما سيرته الادبية فمجملها انه كان محبا للادب مطبوعا على الشـعر وشعره من الطبقة الاولى بين شعراء العصر بمصر . وكلهم يعترفون له بالتقـدم والفضل وله منظومات رنانة سارت بذكرها الركبان ومنها ما جرى مجرى الامثال وفى جملتها قصيدة فى السيرة النبوية تبلغ نحو ستمائة بيت على روى البردة سماه « كشف الغمة فى مدح سيد الامة » ومطلعها :

يا رائد البرق يمم دارة العلم واحد الغمام الى حى بذى سلم

واليك امثلة من منظوماته ـ قال فى وصف الليل من قصيدة بعث بها من جزيرة سيلان الى الامير شكيب ارسلان :

وترى الثريا فى السـماء كانها حلقات قرط بالجمان مرصـع
بيضـاء ناصعة كبيض نعامة فى جـوف أدحى بأرض بلقع
وكأنهـا أكر توقـد نورهـا بالكهرباءة فى سماوة مصـنع
والليل مرهوب الحميـة قائم فى مسحـة كالراهب المتلفـع
متوشح بالنـيرات كباسـل من نسل حام باللجين مدرع
حسب النجوم تخلفت عن امره فوحى لهن من الهـلال باصبع

وقال من قصيدة يعزى بها الاستاذ خليل مطران عن فقد عمه حبيب باشا مطران :

اعـزيك لا انى اظنك عاجـزا لخطب ولكنى عمـدت لواجب
وكيف أعزى من فرى الدهر خبرة وأدرك ما فى طيه من عجائب

فيا صاحبى مهلا فلست بواجد سوى حاضر يبكى فجيعة غائب
وصبرا فان الصبر اكرم صاحب لمن بان عن مثواه اكرم صاحب

ونظرا لما فطر عليه من الميل الى الجندية فقد اجاد كثيرا فى نظم الفخريات ومنها ابيات يتمثل بها الناس كقوله من قصيدة عارض بها قصيدة ابى فراس :

من النفر الغر الذين سيوفهم لها فى حواشى كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

وقوله من قصيدة اخرى :

وفيت بما ظن الكرام فراسة بامرى ومثلى بالوفاء جدير
واصبحت محسود الجلال كأننى على كل نفس فى الزمان أمير
اذا صلت كف الدهر من غلوائه وان قلت غصت بالقلوب صدور

ومن هذا القبيل قوله من قصيدة يصف بها الحرب بجزيرة كريت :

والخيل واقفة على ارسانها لطراد يوم كريهة ورهان
وضعوا السلاح الى الصباح واقبلوا يتكلمون بألسن النيران
حتى اذا ماالصبح اسفر وارتمت عيناى بين ربى وبين مجان
فاذا الجبال اسنه واذا الوها د اعنة والماء احمر قان

وله من الشعر الوصفى قصيدة يصف بها عصفورا على غصن وقد ابدع فيه قال :

ونباة اطلقت عينى من سنة كانت حبالة طيف زارنى سحرا
فقمت اسأل عينى رجع ماسمعت اذنى فقالت لعلى ابلغ الخبرا
ثم اشرابت فألفت طائرا حذرا على قضيب يدير السمع والبصرا
مستوفزا يتنزى فوق ايكته تنزى القلب طال العهد فاذكرا
لا يستقر له ساق على قدم فكلما هدأت انفاسه نفرا
يهفو به الغصن أحيانا ويرفعه دحو الصوالج فى الديمومة الاكرا
ما باله وهو فى امن وعافية لا يبعث الطرف الا خائفا حذرا
اذا علا بات فى خضراء ناعمة وان هوى ورد الغدران أو نفرا
يا طير نفرت عنى طيف غانية قد كان اهدى لى السراء حين سرى

حوراء كالريم الحاظا اذا نظرت | وصورة البدراشراقا اذا سفرا
زالت خيـالتهـا عنى واعقبها | شوق احال على الهم والسهرا
فهل الى سنة ان اعوزت صلة | عود ننال به من طيفها الوطرا

وكان اذا عارض المخضرمين أو الجاهليين جـاء نظمه مثل نظمهم متانة وعلوا . فمن قصيدة عارض بها دالية النابغـة الذبيانى قوله فى وصف الفرس :

ولقد هبطت الغيث يلمع نوره | فى كل وضـاح الاسرة اغيـد
تجـرى به الآرام بين منـاهل | طابت مشـاربهـا وظل ابرد
بمضـــمر ارن كان سراتــه | بعد الحميم سبيكة من عسجد
خلصت له اليمنى وعم ثلاثة | منه البياض الى وظيف اجرد
فكأنما انتزع الاصـيل رداءه | سلبا وخاض من الضحى فى مورد
زجل يردد فى اللهـات صهيله | دفعـا كزمزمة الحبى المرعـد
متلفتـا عـن جانبيـه يهـزه | مرح الصبا كالشارب المتفرد
فـاذا ثنيت له العنـان رأيته | يطوى المعاهد فدفدا فى فدفد
يكفيك منه اذا استحس بنبأة | شـدا كأهبوب الاباء المـوقد
صلب السنابك لا يمر بجلمد | فى الشـد الا رض فيه بجلمد
نعم العتاد اذا الشفاه تقلصت | يوم الكريهة فى العجاج الاربد

وقد ختم شعره بابيات فخرية وهى :

انا مصـدر الكلم البوادى | بين الحـواضر والفـوادى
انـا فـارس انا شـاعر | فى كل ملحمــة ونـاد
فـاذا ركبت فـاننى | زيد الفـوارس فى الجـلاد
واذا نطقت فـاننى | قس بن سـاعـدة الايادى
هــذا وذلك ديـدنى | فى كل معضـلة نـآد

ونظرا لمنزلته الرفيعة فى نفوس الشعراء فقد اجتمعوا على ضريحه فى الامام الشـافعى يوم الاربعين مـن وفاته ورثوه وابنوه مما لم يسبق له مثيل الا ما يقال عن توافد الشعراء لرثاء المعرى على قبره

مصطفى كامل

١٢٩١ ـ ١٣٢٦ هـ ـ الموافق ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م

شاهد المصريون فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ما لم يشاهدوا مثله من قبل . شاهدوا حزنا على مصطفى باشا صاحب اللواء عم القطر المصرى من اقصاه الى اقصاه وانتشر فى سائر العالم الاسلامي وسمع دويه فى اوربا والشرق الاقصى مما لم يسمع بمثله فى وادى النيل . توفى صاحب اللواء فى اصيل ذلك اليوم ودفن فى اصيل اليوم التالى فمشى فى جنازته عشرات الالوف واشترك فى المصاب أهل القطر على اختلاف طبقاتهم واعمارهم . فرثاه الشعراء وابنه الخطباء وبكته الصحف وقضت اياما فى نشر ما يرد عليها من رسائل التعزية نثرا ونظما . واقيمت له المآتم فى انحاء القطر فلم يبق جمعية خيرية او أدبية او ناد علمي اومدرسة وطنية للذكور اوالاناث فى القاهرة والاسكندرية او فى الارياف الا عقدت جلسة لتأبين ذلك الفقيد حتى الجمعية الماسونية فقد احتفل بعض محافلها بتأبينه . وبعضهم أقام حفلات تأبين فى الازبكية غير مابعثوا به من تلغرافات التعزية الى ادارة اللواء من الافراد والجماعات كالجمعيات والمشيخات والمدارس وتبرع كثيرون عن نفسه للجمعيات الخيرية ونحوها . وغير ما جاء من رسائل التعزية من انجلترا وفرنسا وغيرهما ومن أطراف الهند . ونشرت التلغرافات العمومية والصحف الافرنجية نعيه وتكلمت عنه. وتألفت فى القاهرة لجنة لاقامة تمثال يحيا به ذكره والناس يبذلون المال فى هذا السبيل . وعينوا يوم ٢٠ مارس التالى



مصطفى كامل

للاحتفـــال بتأبينـــه بجانب ضريحة بقرافة الامام ــ فمن كان هذا وقع مصابه فى النفوس جدير بان ننظر فى ترجمة حاله وندرس أخلاقه وأعماله ونبين منزلته من التاريخ

ترجمة حيـــاته

ولد فى القـــاهرة من أبوين مصريين فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ وكان والده على أفندى محمد مهندسا من جهة الصليبة اشتهر بين معارفه وجيرانه بطيب العنصر وحسن الخلق ووالدته من جهة المحجر بالقاهرة . ولما بلغ السادسة من عمره اتاه والده بمدرس لقنه القراءة والكتابة ثم أدخله مدرسة عباس باشا الاول . وقبل اتمام دروسه الابتدائية توفى والده فانتقل الى مدرسة القربية وعمره ١٢ سنة فأتم دروسه الابتدائية فيها وظهر ذكاؤه بامتيازه على ســـائر الرفاق فنال جائزة الامتحـــان الاولى بين يدى الخـــديو ســــــنة ١٨٨٧ ثم انتقل الى المدرسة التجهيزية قضى فيها أربع ســـنين نال فى نهايتها شهادة البكالوريا وكان من النابغين واشتهر باستقلال الفكر وصراحة القول من ذلك الحين . وانتبه المرحوم على باشا مبارك ناظر المعارف يومئذ لفصاحته وقوة عارضته فقال له مرة : « انك امرؤ القيس وستصير عظيما » وأخبرنا أحـــد رفاقه فى تلك المدرسة أن المرحوم على باشا مبارك اختصه بجنيه يتناوله كل شهر مدة اقامته فى المدرسة ودون اسمه فى كشف ماهيات المعلمين واضطر مصطفى لنقش خاتم يختم به الكشف على اصطلاحهم وهو أول عهده بالاختتام

وكان فى أثناء اقامته بالمدرسة التجهيزية موضع اعجاب الاساتذة والتلامذة جميعا لما امتاز به من حسن الالقاء وفصاحة اللسان . ولم يكن ناظر المعارف أقل منهم اعجابا به فكان ينشطه ويدعوه الى منزله ويناقشه فى المسائل العلميـــة أو الاجتماعية ويقدمه الى جلسائه من العلماء والوزراء والـكل

يعجبون به ويتوقعون له مستقبلا مجيدا . فلما أتم دروسه التجهيزية سنة ١٨٨٩ دخل مدرسة الحقوق الخديوية على أن يعد نفسه لصناعة المحاماة لانها أحوج المهن الى الخطابة . ورأى فى وقته متسعا فالتحق بمدرسة الحقوق الفرنساوية أيضا فكان يتلقى العلم بالمدرستين حتى نال الكفاية منه فذهب الى جامعة طولوز بفرنسا حيث أدى الامتحان ونال الشهادة وهو فى التاسعة عشرة من عمره

وتنبه خاطره وهو يدرس الحقوق الى المسائل السياسية ومضارها على مصر والاحتلال، وهو وطنى حريص على وطنيته، مستقل الفكر، شديد الثقة بنفسه. وقد تشرب من أساتذته الفرنساويين الاستهانة بانجلترا والوثوق بفرنسا فأصبح همه انقاذ مصر من الاحتلال . وكان عضوا عاملا فى عدة جمعيات أدبية يخطب فيها ويباحث وأكثر بحثه فى مصر والاحتلال والجلاء . وكان يتردد على الجرائد الوطنية ليكتب فى هذه المواضيع . ولقى اصغاء وتنشيطا فألف رواية فتح الاندلس التمثيلية ، وكتابا فى حياة الامم والرق عند الرومان، وألف بعد ذلك كتاب المسألة الشرقية وغيره وكلها ترمى الى تحبيب الاستقلال الى المصريين واحياء الشعور الوطنى فيهم . فالتف حوله جماعة من المريدين والمعجبين وأكثرهم من رفاقه فى المدرسة ومن يرى رأيهم من تلامذة المدارس العالية فأنشأ لهم مجلة شهرية سماها « المدرسة » يبث فيها آراءه وأفكاره

واتفق فى أثناء ذلك رجوع المرحوم عبد الله نديم خطيب العرابيين الى مصر سنة ١٨٩٢ وسمع بمصطفى كامل فقربه منه واقتبس صاحب الترجمة بعض أساليبه واطلع على دخائل الحوادث الماضية وتبين أسباب الفشل فأصبح قادرا على تجنبها وزاد رغبة فى انقاذ مصر من سلطة الاجانب ولا يكون ذلك الا بالالتفاف حول أمير البلاد فاستنبط فكرة الاحتفال بعيد الجلوس الخديوى فحرض رفاقه التلامذة على ذلك

فاحتفلوا به فى الازبكية فى ٨ يناير سنة ١٨٩٣ فقربه الخديو ورضى عنـــه . وفى ذلك الاحتفـــال صرح مصـــــطفى كامل للمرة الاولى بانتقـــاد حالة الحـــكومة ودعا المصريين الى مطالبة الانجليز بالجلاء عن بلادهم قياما بوعودهم . وكان فى جملة الحاضرين ناظر مدرسة الحقوق فاستدعى مصطفى اليه فى الغد وعاتبه على تصريحه فأجابه انه مصرى وله الحق أن يبحث فى شؤون مصر وشدد لهجته فرفع الناظر امره الى نظارة المعارف فأصدرت أمرا بمنع التلامذة من الاشتراك فى مثل ذلك ومن مكاتبة الصحف . فاعتبر مصطفى هذا الامر موجها اليه فازداد تمسكا برأيه وتضاعفت همته على اخراجه الى حيز العمل



وجاء مصر فى ذلك الحين المسيو «دلونكل» وهو فرنساوى كثير التظاهر بالغيرة على المصريين . وكان فى مصر يومئذ حزب وطنى تألف بطبيعة الحال من أوائل عهد الاحتلال ولم يكن حزبا منظما له رئيس ونائب وأمين وكاتب مثل احزاب هذه الايام ولكنه ضم نخبة النبهاء والوجهاء الذين يكرهون الاحتـــلال وينتقدون أعمال الانجليز اما رغبة فى استقلال مصر أو نقمة لذهاب نفوذهم . ولهذا الحزب فضل على أكثر الصحف الوطنية التى نشأت فى أوائل الاحتلال لانهم كانوا يســـاعدونها ماديا وأدبيا تحت طى الخفاء للاستعانة بها على جرائد الاحتلال . وكان مصطفى كامل طبعا من جملة ذلك الحزب وكان «دلونكل» يحضر مجتمعات الوطنيين ويستحثهم على الثبات . فالتقى هناك بصاحب الترجمة وأعجب بذكائه وفصاحته فرغبه فى السفر الى فرنسا للتبحر فى الحقوق فسافر الى باريس آخر سنة ١٨٩٣ واعجبته حرية القوم وموافقتهم اياه فى انتقاد الانجليز فعرف كثيرين من رجال السياسة والصحافة فيها . وفى ٨ يناير سنة ١٨٩٤ احتفل بعيد الجلوس الخديوى هنـــاك

احتفالا شهده أكثر المقيمين فى باريس من المصريين وهم من التلامذة المرسلين لتلقى العلم على نفقة الحكومة المصرية. فألقى فيهم مصطفى كامل خطابا استحثهم فيه على الثبات فى طلب الجلاء فوافقوه وتواطؤوا على استنجاد فرنسا فى ذلك الطلب على أن تكون حجتهم وعد انجلتـــرا الذى صرحت به عام الاحتـــلال . وبلغ ذلك نظارة المعـــارف المصرية فأخرجت المشتركين فى ذلك العمل من عداد الارسالية

وعاد مصطفى فى أوائل السنة التالية الى مصر واحترف المحاماة أشهرا فرآها أضيق من أن تسع مطامعه وفى صدره غرض أصبح جزءا من وجدانه ولم يكتف بما كان ينشره فى الجرائد فعول على القاء الخطب السياسية فى المنتديات العمومية فألقى خطبته الاولى فى الاسكندرية ونشرتها الجرائد فراى فيها الناس من شدة اللهجة على الاحتلال وطلب الجلاء ما لم يعهدوه من قبل فأعجبوا بالشاب وشاركوه فى احساسه وفيهم من يرى ذلك الطلب بعيد المنال ولكن الانسان يلتذ بالانتقاد على غالبه . فأطروه ونشطوه فازداد رغبة فى الخطابة والصحافة والذت له الشهرة ووطن النفس على التفانى فى طلب الجـلاء وجعل ذلك وجهته وكعبة آماله ومدار أعماله وهو يعلم عجزه عن تلك الامنية بنفسه واهله فراى أن يستعين بفرنسا وقد جراه على ذلك ما آنسه فى رحلته الاولى من الحفاوة وما سمعه من التامين والترغيب على عادة الفرنسيين من الانقياد الى الوجدان . فكف عن صناعته وانقطع للمطالبة بالجلاء فشخص عام ١٨٩٥ الى باريس ومعه رسم كبير يمثل مصر والاحتلال الانجليزى بشكل يرمز عن توسل المصريين الى فرنســـا أن تساعدهم كما ساعدت الامريكان واليونان والبلجيكيين والطليان فى نيل حريتهم

رفع هذا الرسم الى مجلس النواب الفرنسى فى ٤ يونيو من تلك السنة . ومعه عريضة قدمها باسمه ينوب فيها عن مصر

فى استنجاد ذلك المجلس على الانجليز . وكان لهذا العمل دوى فى فرنسا فضلا عن مصر وتحدث الناس يومئذ بجراة هــذا الشاب وعلو همته واقدامه وهو الى ذلك الحين لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره . فلم يأت هذا المسعى بالنتيجة المطلوبة ولكن الفرنسيين رحبوا بالخطيب المصرى وتقاطر اليه كتاب الصحف يقابلونه وينشرون آراءه فى جرائدهم . وتسابق القوم يدعونه لالقاء الخطب فى أنديتهم وكلها ترمى الى الغرض عينه . واول خطبة سياسية القــاها على الافرنج فى طولوز صدرها بتاريخ الاحتلال وعهوده وفصــــل أحوال النظارات المصرية وسيطرة الانجليز فيها وصور استئثارهم بالوظائف والنفوذ واحتقارهم الاهالى واخذ يبرهن أن وجود الانجليز بمصر يخالف كل المعاهدات وان اخراجهم منها يوافق مصالح دول أوربا كافة . ثم القى خطبا أخرى وراسل الجرائد وكاتب الوزراء وكلها ترجع الى انتقاد الاحتلال وطلب الجلاء . أشهرها خطاب بعث به الى المستر «غلادستون» من باريس يسأله رأيه فى مسألة مصر والاحتلال فأجابه «غلادستون» جوابا جاء فى جملته قوله : « اننا يجب أن نترك مصر، بعد أن نتم فيها بكل شرف ، وفى فائدة مصر نفسها ، العمل الذى من اجله دخلناها» و « ان زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين »

فلا عجب ـ بعد اعتراف اعظم رجال انجلترا بموافاة زمن الجلاء ـ اذا رأينا مصطفى كامل يزداد ثباتا فى دعوته. فرجع الى مصر فى أوائل سنة ١٨٩٥ وقضى بضع سنوات وهو يخطب ويكتب ويكاتب ويناضل. وانشأ جريدة «اللواء» اليومية لنشر آرائه السياسية سنة ١٨٩٩ وصــــوتها فى الدفاع عن مصر والمصريين من أعلى الاصوات

ولما تم الاتفاق بين انجلترا وفرنسا بشــأن مصر والمغرب الاقصى ولم ينل مصطفى من فرنسا غير الوعود وجه احتجاجه الى المراجع الاصلية اما الى رجال السياسة بانجلترا رأسا أو

الى جرائدهم ، وسافر الى بلاد الانجليز لهذه الغاية. ثم رأى ذلك لايفى بمراده ولايحيط بمدى صوته فأنشأ « اللوائين » الانجليزى والفرنسى لينشر فيهما أقواله عن مطالب مصر حتى يصل النداء الى انجلترا وسائر أوربا وألف لهما شركة مساهمة هى اول شركة مساهمة تألفت لانشاء الجرائد فى هذه البلاد وذهب بنفسه الى انجلترا واستقدم المحررين

فطار صيته فى الآفاق وأصبح اسمه مرادفا لاحتجاج مصر على انجلترا وهو فى خلال ذلك لايضيع فرصة لايحتج بها . ومن أشهر مواضيع احتجاجه مسألة دنشواى فقد كان فى مقدمة المنادين بظلم الحكم على أهلها واستكتب الاهلين عرائض لالتماس العفو وقع عليها ١٢٫٥٠٠ من المصريين ورفعها الى الخديو . وكان فى أثنـــاء ذلك يخدم مصلحة الدولة العلية من طرق كثيرة فأنعم عليه السلطان بالرتب والالقاب حتى بلغ الرتبة الاولى من الصنف الثانى والنيشان المجيدى الثانى . وتعلقت به قلوب المصريين وتعشقوه بما لم يسبق له مثيل . فلما تشكل الحزب الوطنى انتخبوه رئيسا له طول حياته ولكنه رحمه الله كان قصير الحياة فتوفى فى الحادى عشر من فبراير سنة ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره . فانتخبوا مكانه رفيقه فى جهاده المرحوم محمد بك فريد رئيسا للحزب ومديرا للألوية الثلاثة

صـــفاته وأعمـــاله

كان رحمه الله متوسط القامة قمحى اللون سريع الحركة جريئا مقداما فصيح اللهجة قوى العارضة شديد الثقة بنفسه واسع الآمال طموحا للعلى مستقل الفكر صريح القول . وكان عصبى المزاج ، والعصبى يغلب فيه الذكاء وحدة الذهن وسرعة الخاطر وكانت هذه الطبائع ظاهرة فى الفقيد ظهورا واضحا اذ كثيرا ماكنا نراه فى اثناء نضاله يكاد يغلب على رأيه لما يظهر لنا من حجة خصمه فما هو الا أن يصدر « اللواء » فى اليوم التالى

فنراه قدتذرع بدفاع أيده بشواهدتاريخية انتبه لها. وكانت تساعده على ذلك قوة الحافظة

وكان فيه من طبائع العصبيين سرعة الانفعال . وسريعو الانفعال يغلب فيهم التقلب فى الرأى ولم يكن كذلك ، ولكنه كان شديد الوطأة على مخالفيه ولو كانوا من أساتذته أو أقرب الناس اليه . وسرعة الانفعال مع هذه الشدة قد يبعثان على الفشل فى الاعمال العظمى لانها تفتقر الى التساهل والكظم والصبر على المكاره فالفقيد سد هذا النقص بجراته وعلو همتـــه وثقته بنفسه. فكان اذا نهض لأمر اقتحمه اقتحام الاسد على فريسته وجاهد فى سبيله بيده ولسانه وجنانه لايعجزه السفر ولايبالى بالتعب فقضى زهرة شبابه ينتقل من قارة الى قارة ومن عاصمة الى عاصمة لايتحول عن منبر عربى حتى يعلو منبرا افرنجيا. اذا كتب رايت الحماسة تتجلى بين سطوره واذا خطب انقض كالصاعقة أو انهال كالسيل . واذا توهم فى احد وقوفا فى طريقه ناهضه وبارزه لايبالى بمنصبه أو مقامه

وكان رحمه الله عفيف النفس نزيه الخلق صادق اللهجة عالى الهمة لايلذ له من احوال الحياة غير التفكير فى الغاية التى وقف قواه عليها وهى خدمة بلاده بأشرف السبل وانفعها . وكان يعتقد أن الاستقلال أول خطوة يجب السير بها ويعنى بالاستقلال خروج الانجليز من مصر بمســـاعدة دول أوربا ورجوعها الى ماكانت عليه قبله . واستجمع قواه فى هـــذا السبيل فسافر وكتب وخطب وجادل وناقش لهذا الغرض . وكان يرى مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم فكان شديد المدافعة عنه كثير السعى فى نصرته . ومن أقصى أمانيـــه أن يكون نصـــير المسلمين فى أقطار الارض . وقد اطلعنا بعض الاصدقاء على كتاب من بعض رجال ابن الرشيد يؤخذ منه أن الفقيد سعى منذ بضع سنوات فى السفر الى نجد لملاقاة ذلك الزعيم هناك . وقرأنا فى تأبين بعض مريديه

انه كان ينوى استئذان جلالة السلطان فى أن يكون خطيب المسلمين فى المدينة يوم وصول السكة الحديدية اليها وانه كان يهيىء اسباب الرحيل الى اليابان لحضور معرضها ونقل نتائج الافكار الكبيرة لربط العلائق مع الشعب اليابانى على أن يمر فى اثناء طوافه ببلاد الهند ليرى أحوال النهضة الاسلامية هناك . كل ذلك يدل على كبر نفس هذا الرجل وسعة مطامعه .. وليس ادل على اخلاصه التام لمبادئه ، من الادلة التالية :

١ ـ ثباته فى المبدأ الذى قام فى نفسه منذ كان تلميـــذا لايسمع صوته الا رفاقه حتى صار خطيب المحافل ومتكلم القوم وزعيم الحزب الوطنى وصاحب الالوية الثلاثة . له دعوة واحدة كانت تتجلى فى مطالبه اذا كتب أو خطب او ناقش أو باحث بين الاصدقاء أو الاعداء بالعربية او الافرنجية على سواء

٢ ـ انقطاعه لهذه الدعوة وتفانيه فى سبيلها حتى شغلته عن سائر مطالب الحياة وملاذ الشباب فلم يتزوج ولاجلس لشرب أو لهو ولا التفت الى جمال أو طرب . لايلذ له غير التحدث بالوطن أو الاستقلال أو الجلاء

٣ ـ اجماع الذين عاشروه من رفقائه وأصدقائه على حبه واعتقاد الاخلاص فيه فضلا عن الآخرين مما لايتـــأتى لغير المخلصين . لأن الانسان اذا سعى فى مشروع عمومى طمعا بمال أو جاه لاتلبث حقيقة حاله أن تنكشف لعشرائه الاقربين أو شركائه فى عمله فينفضوا من حوله كما أصاب كثيرين من زعماء الاحزاب فى العالم القديم والحديث . ففسدت نيات أصحابهم وذهبت مساعيهم ادراج الرياح . وقد يبقى مع الزعيم المنافق اناس يداجونه ويداجيهم التماسا للكسب . ولـكن أصحاب مصطفى كامل ثبتوا فى ولائه حيـا وميتا وهم يستهلكون فى سبيل نصرته وفيهم جماعة من نخبة العقلاء والفضلاء ومعظمهم اكبر منه سنا واوفر مالا واعرض جاها وبعضهم أغزر منه علما

وقد نصروه بعقولهم وأموالهم وقلوبهم ولم يستنكفوا من تصدره فى مجالسهم ولا داخلهم الحسد من رئاسته عليهم

هل هو رجل عظيم ؟

يختلف الحكم فى عظمة الرجال باختلاف الامم والاجيال فبعضهم يقيسون العظمة بكبر المطامع وسعة الفتوح أو بكثرة الاموال ، وبعضهم يقيسونها بمقدار النفع الذى يترتب على ظهور ذلك العظيم . فمن الفرنسيين من يعد بونابرت أكبر رجال فرنسا لكثرة فتوحه وكبر مطامعه وبعضهم يقدم « باستور » عليه لأنه خدم الانسانية باكتشافاته الميكروبية وآخرون يفضلون رجال الدين والشارعين . وعندنا ان الرجل العظيم انما يكون عظيما بما يخلفه من الاعجاب والاثر الحسن فى نفوس معاصريه. اذ قد يكون عظيما بنفسه ولايوفق لاتمام عمله فيؤسس لمن يأتى بعده . وعلى هذا القياس نعد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده عظيمين لأن الاول من مؤسسى النهضة السياسية والثانى من مؤسسى النهضة الدينية الاصلاحية . وعلى هذا القياس أيضا نعد مصطفى كامل عظيما لأنه أحيا فى الامة المصرية جامعة الوطن وهو القائل : « لو لم أكن مصريا لوددت ان أكون مصريا » . وعلم المصريين المجاهرة بطلب حقوقهم وأسمع دول أوربا أصواتهم . فهو من أكبر مؤسسى النهضة السياسية المصرية . ولم يأت جمال الدين الافغانى عملا لايستطيع مصطفى كامل مثله واعظم منه لو بلغ الى مثل سنه . ألم يواقف أعظم دول الارض حتى عرض نفسه للنفى اوالطرد؟ وقد تفانى فى خدمة مبدئه حتى مات شهيدا فى ريعان شبابه

ان الفقيد أحيا الشعور الوطنى بحماسته وجراته وجاءه الموت السريع فى ابان جهاده فذهب شهيدا . وعرف المصريون له ذلك فاتحدوا فى البكاء عليه وتعاونوا فى تعظيمه وتكريمه فظهر الشعور الوطنى بعد موته أكثر مما كان ظاهرا فى حياته .

رجال اصلاح

١ ـ جمال الدين الأفغانى
٢ ـ محمد عبده
٣ ـ عبد الرحمن الكواكبى
٤ ـ قاسم أمين

السيد جمال الدين الحسينى الافغانى

١٢٥٤ ــ ١٣١٤ هـ الموافق ١٨٣٨ ــ ١٨٩٦ م

قد تمر القرون وتتوالى الاجيال والناس على ما ساقتهم اليه الحاجة من شؤون معاشهم لايفقهون غثها من سمينها ولايدركون مبداها ولا مصيرها حتى تتمخض الطبيعة فتلد من ابنائها أفرادا يميطون عن اسرارها اللثام فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين . أولئك هم اقطاب العلم وانوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مزقوا أستار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فمهدوا سبل الاختراع والاكتشاف . ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا اسرار الحكمة المستترة وراء تلك النواميس وبينوا ما أودعه الخالق فى خليقته من القواعد العقلية والروابط الادبية

ولكن الدنيا لا تجود بواحد من أولئك الافراد الا كل بضعة قرون فيسير الناس على خطواته أجيالا حتى اذا كادوا يرجعون الى غيهم جادت عليهم بآخر ينفث فيهم روحا حية فيهبون من رقادهم ويعودون الى رشدهم ريثما يأتيهم ثالث

هكذ كان شأن العالم من بدء عمرانه • ومن أولئك الفلاسفة سقراط وافلاطون ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا نزال نستضىء بنبراسهم

ولكن لله فى خلقه حكمة لاتدركها العقول فقد ينبغ فى بعض الاجيال افراد توافرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال



جمال الدين الحسيني الافغاني

الاعمال فتحيط بهم بيئات لاتصلح لنماء مايغرسون فيذهب سعيهم هباء منثورا

ولما كان الانسان لايقدر العمل الا بنسبة مايترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الارض جهل الناس حق قدرهم وأغفل التاريخ ذكرهم كما هو شأننا بفقيد الشرق الفيلسوف الخطيب السيد جمال الدين الافغانى رحمه الله . فقد نشأ قطبا من أقطاب الفلسفة وعاش ركنا من أركان السياسة ولكنه مات ولم يتم عملا ولا ألف كتابا . على أن ذلك لايحط من مقامه وقد رأينا أعظم فلاسفة اليونان «سقراط» مات ولم يدون شيئا من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها فتوارثها الاجيال خلفا عن سلف . فعسى أن لايحرم من مريدى الاستاذ وتلامذته من يفعل مثل ذلك

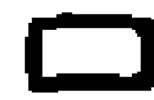
ترجمة حياته

هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر ، ولد فى بيت شرف وعلم بقرية أسعد اباد من قرى كنر من أعمال كابل ببلاد الافغان سنة ١٢٥٤ هـ «١٨٣٨م» ويتصل نسبه بالسيد على الترمذى المحدث المشهور ويرتقى الى الامام الحسين بن على ابن أبى طالب . وآل هذا البيت عشيرة كبيرة تقيم فى خطة كنر ولها منزلة عليا فى قلوب الافغانيين لحرمة نسبها . وكانت تملك جزءا من أرض الافغان حتى سلب الملك منها دوست محمدخان جد الامير عبد الرحمن وأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه الى مدينة كابل وجمال الدين لايزال فى الثامنة من عمره . فعنى والده بتربيته وتثقيفه فتلقى مبادىء العلوم العربية والتاريخ وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول وكلام وتصوف ، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية والهيئة والعلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ونظريات الطب والتشريح . وكانت ملامح النجابة والذكاء ظاهرة

فيه منذ نعومة اظفاره . فاتم هذا كله وهو فى الثامنة عشرة من عمره ..

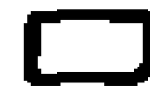
ثم عرض له سفر الى بلاد الهند فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر فى بعض العلوم الرياضية على الطريقة الافرنجية الحديثة. وقدم بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لاداء فريضة الحج فقضى سنة ينتقل من بلد الىآخر حتى وافى مكة المكرمة فىسنة١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م فوقف على كثير من عادات الامم التى مر بها فىسياحته ثم رجع الى بلاده وانتظم فى سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان المتقدم ذكره ولما زحف هذا الامير الى هراة ليفتحها ويملكها على سلطان احمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه فى جيشه ولازمه مدة الحصار الى ان توفى الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلا . وتقلد الامارة ولى عهدها شير على خان سنة١٢٨٠ هـ ـ ١٨٦٣م وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على اخوته ويعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة والبوهم للفساد طلبا للاستبداد بالامارة . وكان فى جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة : محمد اعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين ، فانتصر السيد جمال الدين لمحمد اعظم فلما أحسوا بتدبير الامير ومشورة الوزير أسرعوا الى الفرار وتفرقوا فى الولايات فذهب كل منهم الى ولايته التى كان يليها من قبل أبيه وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية . وبعد مجادلات عنيفة عظم امر محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن وتغلبا على عاصمة المملكة وانقذا محمد افضل والد عبد الرحمن من سجن قزنة وسمياه أميرا على أفغانستان ثم ادركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد اعظم خان فارتفعت منزلة جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرايه فى العظائم وما دونها وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير بالاغلب من ذوى قرابته مما حمله على تفويض مهمات الاعمال الى ابنائه

الاحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة فساق الطيش احدهم وكان حاكما فى قندهار على منازلة عمه شير على فى هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى أنه يظفر فينال عند ابيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته . فلما تلاقى مع جيش عمـــه دفعته الجراة على الانفراد عن جيشه فى مائتى جندى اخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب فى قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ما التفت يعقوب خان قائد شير على فوجد ذلك الغلام متقطعا عن جيشه فكر عليه وأخذه أسيرا فتشتت جند قندهار وقوى الامل عند شير على فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب الى شبابها وعضد الانجليز شير على وبذلوا له قناطـير من الذهب ففرقها فى الرؤساء والعاملين لمحمـــد أعظم فبيعت امانات ونقضت عهود وجددت خيانات . وبعد حروب هائلة تغلب شير على وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبـــد الرحمن فذهب عبد الرحمن الى بخارى وذهب محمد أعظم الى بلاد ايران ومات بعد أشهر فى مدينة نيسابور



أما السيد جمال الدين فبقى فى كابل لم يمسسه الامير بسوء احتراما لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوى . الا أنه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله . ولهـــذا رأى الســـيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الافغان فاستأذن فى الحج فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد ايران كيلا يلتقى فيها بمحمد أعظم وكان لم يمت بعد فارتحل عن طريق الهند سنة١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٨ م بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر . فلما وصل الى التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة واجلال الا أنهـــا لم تسمح له بطول الاقامة فى بلادها ولا أذنت للعلماء فى الاجتماع عليه الا تحت مراقبة رجالها ، فلم يقم هناك الا شهرا ثم سيرته من سواحل الهند فى احد مراكبها الى السويس ، فجاء مصر

واقام بها نحو اربعين يوما تردد على الجامع الازهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا اليه كل الميل وسألوه ان يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضا منه فى بيته ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الاستانة



وبعد ايام من وصوله الاستانة قابل الصدر الاعظم عالى باشا فنزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله واقبل عليه بما لم يسبق لمثله وهو مع ذلك بزيه الافغانى من القباء والكساء والعمامة العجراء وحومت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه وادبه وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم ولم تمض ستة أشهر حتى عين عضوا فى مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة فى آرائه ولكنه اشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه عليها رفقاؤه وبينها ما ساء شيخ الاسلام اذ ذاك لانها كانت تمس شيئا من رزقه فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م فرغب اليه مدير دار الفنون أن يلقى فيها خطابا للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه فى اللغة التركية فألح عليه فأنشأ خطابا طويلا كتبه قبل القائه وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية فاستحسنوه

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وارباب الجرائد وحضر فى الجمع معظم الوزراء فصعد جمال الدين على منبر الخطابة والقى ما كان أعده ببلاغة سحرت عقول السامعين . فأنكر مشايخ العلم شيئا من آرائه واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيرا عليه كما علمت فالتمس من الدولة ابعاده عن الاستانة فصدر له الامر بالجلاء عنها بضعة اشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء ففارقها

وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها فى اول المحرم سنة ١٢٨٨ هـ - ٢٣ مارس ١٨٧١ م

قدم السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام واجرت عليه الحكومة راتبا مقداره الف قرش مصرى كل شهر نزلا أكرمته به لا فى مقابلة عمل . واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فأورى واستفاضوا بحره ففاض درا وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العالية فى فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية من طبيعية وعقلية وفى علم الهيئـــة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامى . وكانت مدرسته بيته فعظم امره فى نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الاخذ عنه واعجبوا بعلمه وأدبه وانطلقت الالسن بالثنـــاء عليه وانتشر صيته فى الديار المصرية . ثم وجه عنايته لتمزيق حجب الاوهام عن انوار العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة وانشاء الفصــــول الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة فى مصر بسعيه وكان القادرون على الاجادة فى المواضيع المختلفة قليلين

فنبغ من تلامذته فى القطر المصرى كتبة لايشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم واغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصـــناعة وما منهم الا من اخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به. هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية اخذا بقول جماعة من المتأخرين فى تحريم النظر فيها فتمكنوا من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأى هذا الرجل واذاعوا ذلك بين العامة ثم ايدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة . غير أن هذا كله لم يؤثر فى مقامه من نفوس العارفين بحاله

وكان رحمه الله على علمه وفضله ميالا الى السياسة فنظر فى حال مصر وما آلت اليه من التدخل الاجنبي فعلم أن لابد من تغير أحوالها وكان قد انتظم فى سلك الجمعية الماسونية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء فأنشأ محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنساوى دعا اليه مريديه من العلماء والوجهاء فصار أعضاؤه نحوا من ثلاثمائة عددا وكان شديد الكره للدولة الانجليزية كما تقدم من حاله معها فى الهند وما كان من اعتدائهم على أبناء ابيه فجهر بذلك غير مرة ونشر فصولا ناطقة به ترجموها الى جرائد انجلترا واهتموا بها كثيرا حتى تولى المستر غلادستون نفسه أمر الجدال فى موضوعها . فلما عظم أمر محفله داخل الخوف قنصل انجلترا فوشى به الى الحكومة وبث الرقباء فى المحفل فسعوا فيه فسادا . وفى خلال ذلك بلغت احوال مصر نهاية الارتباك فصرح بأمور قوت حجة الساعين وكان تولى مصر الخديو توفيق باشا فأصدر أمره باخراجه من القطر المصرى هو وتابعه أبو تراب ففارق مصر الى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ هـ ـ ١٨٧٨ م وأقام بحيدر اباد الدكن وفيها كتب رسالته فى «نفى مذهب الدهريين»

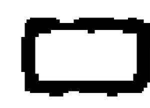


ولما كانت الحوادث العرابية بمصر دعى من حيدر آباد الى كلكتا وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى امر مصر وفتأت الحرب الانجليزية ثم أبيح له بالذهاب الى اى بلد فاختار الشخوص الى أوربا . وأول مدينة نزلها مدينة لندره أقام بها أياما قلائل ثم انتقل الى باريس فوافاه اليها صديقه الشيخ محمد عبده المصرى . وكانت فى مصر جمعية وطنية اسمها جمعية العروة الوثقى فكلفته على بعد الدار أن ينشيء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة الاسلامية فأنشأ «العروة الوثقى» وكلف صديقه المشار اليه بتحريرها وكان لها وقع حسن فى العالم الاسلامى فنشر منها ١٨ عددا ثم قامت الموانع دون

استمرارها حيث اقفلت ابوا بالهند عنها وشددت الحكومة الانجليزية فى اساءة من يقراها

وقضى جمال الدين فى باريس ثلاث سنوات نشر فى أثنائها مقالات فى جرائدها تبحث فى سياسة روسيا وانجلترا والدولة العلية ومصر وترجمت جرائد انجلترا كثيرا منها وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنساوى رينان فى «العلم والاسلام» فشهد له هذا بسعة العلم وقوة الحجة ثم شخص الى لندره بايعاز اللورد شرشل واللورد سالسبرى ليسألاه عن رأيه فى المهدى وظهوره اذ ذاك . ثم عاد الى فرنسا وتعرف بكثيرين من علمائها و فلاسفتها فأحلوه مكانا عليا

ثم عزم على نجد فاستقدمه شاه الفرس اذ ذاك المرحوم ناصر الدين شاه على لسان البرق ليراه فسار قاصدا طهران فالتقى فى أصفهان بالامير ظل السلطان فلاقى منه اكراما حتى اذا وصل طهران استقبله الشاه أحسن استقبال وأكثر من الثناء عليه حيثما ذكره حتى فى بلاطه وبين اهله واولاده وولاه نظارة الحربية على أن يرقيه بعد قليل الى منصب الصدارة



وكان جمال الدين قد درس أخلاق الامم وعرف تواريخ الدول وتدبر احوال السياسة على اختلاف الامكنة والازمنة مع بلاغته وقوة برهانه . فنال لدى أمراء الفرس وعلمائها منزلة قل ان ينالها غيره فى مثل حاله فأصبح منزله حلقة علم يؤمها سراة البلاد ووجهاؤها يتسابقون الى سماع حديثه فخامر الشاه ريب من أمره مخافة أن يكون وراء ذلك مايخشى منه على سلطانه فأبدى تغيره عليه ، فأدرك جمال الدين مافى نفسه فاستأذنه فى السفر لتبديل الهواء فأذن له فسار الى موسكو فى روسيا فلاقاه أهلها بالتجلة والاكرام لما سبق الى مسامعهم من شهرته . ثم شخص الى بطرسبورج وتعرف بأعاظم رجالها من العلماء

والسياسيين ونشر فى جرائدها مقالات ضافية فى سياسة الافغان والفرس والدولة العلية والروسية والانجليزية كان لها دوى شديد فى جو السياسة

واتفق اذ ذاك فتح معرض باريس لسنة ١٨٨٩ م فشخص جمال الدين اليها فالتقى بالشاه فى مونيخ عاصمة بافاريا عائدا من باريس فدعاه الشاه الى مرافقته فأجاب الدعوة وسار فى معيته الى فارس فلم يكد يصل طهران حتى عاد النـــاس الى الاجتماع به والانتفاع بعلمه والشاه لايرتاب من أمره كأن سياحته فى أوروبا محت كثيرا من شكوكه . فكان يقربه منه ويوسطه فى قضاء كثير من مهمات حكومته ويستشيره فى ســـن القوانين ونحوها فشق ذلك على أصحاب النفوذ وخصوصا الصـــدر الاعظم فأسر الى الشاه أن هذه القوانين وان تكن لاتخلو من النفع فهى لاتوافق حال البلاد فضلا عما ستأول اليه من تحويل نفوذ الشاه الى سواه . فأثر ذلك فى الشاه حتى ظهر على وجهـــه فأحس جمال الدين بالامر فاستأذنه فى المســـير الى بلدة شاه عبد العظيم على ٢٠ كيلومترا من طهران فأذن له فتبعه جم غفير من العلماء والوجهاء وكان يخطب فيهم ويستحثهم على اصـــلاح حكومتهم فلم تمض ثمانية أشهر حتى ذاعت شهرته فى أقاصى بلاد الفرس وشاع عزمه على اصلاح ايران فخاف ناصر الدين عاقبة ذلك فأنفذ الى شاه عبد العظيم خمسمائة فارس قبضوا على جمال الدين وكان مريضا فحملوه من فراشه وساقوه يخفره خمسون فارسا الى حدود المملكة العثمانيـــة فعظم ذلك على مريديه فى ايران فثاروا حتى خاف الشاه على حياته

أما جمال الدين فمكث فى البصرة ريثما عادت اليه صـــحته فشخص الى لندره وقد عرفه الانجليز من قبل فتلقوه بالاكرام ودعوه الى مجتمعاتهم السياسية وأنديتهم العلمية ليروه ويسمعوا حديثه وكان أكثر كلامه معهم فى بيان حال الشاه وتصرفه فى المملكة وما آلت اليه حالها فى عهده مع حث الحكومة الانجليزية على

السعي فى خلعه . وفيما هو فى ذلك ورد عليه كتاب مع المابين الهمايونى بواسطة المرحوم رستم باشا سفير الدولة العلية فى لندره اذ ذاك أن يقوم الى الاستانة فاعتذر لانه فى شاغل وقتى لاصلاح بلاده . فورد عليه كتاب آخر وفيه ثنـــاء وتحريض فأجاب الدعوة تلغرافيا على أن يتشرف بمقابلة جلالة السلطان ثم يعود . فقدم الاستانة سنة ١٨٩٢ فطابت له فيها الاقامة لما لاقاه من التفات الحضرة السلطانية واكرام العلمـــاء ورجال السياسة وما زال معززا مكرما وجيها محترما حتى داهمـــه السرطان فى فكه أواخر سنة ١٨٩٦ وامتد الى عنقه فتوفاه الله فى ٩ مارس سنة١٨٩٧ واحتفل بجنازه ودفنه فى مدفن«شيخلر مزارلغى» قرب نشان طاش

صفاته الشخصية

كان أســـمر اللون بمـــا يشـــبه أهـــل الحجـــاز ربعـــة ممتلىء البنية أســـود العينين نافذ اللحظ جـــذاب النظر مع قصر فيه فاذا قرأ أدنى الكتاب من عينيه ولكنه لم يستخدم النظارات . وكان خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صـــغيرة بيضاء على زى علماء الاستانة

«طعامه» : كان قانتا قليل الطعام لايتناوله الا مرة فى النهـــار ويعتاض عما يفوته من ذلك بما يشربه من منقوع الشاى مرارا فى اليوم . والعفة فى الطعام لازمة من يعمل أعمالا عقلية لان البطنة تذهب الفطنة . وكان يدخن نوعا من السيجار الافرنجى الجيد ولشدة ولعه بالتدخين وعنايته فى انتقاء السيجار لم يكن يركن الى أحد من خدمه فى ابتياعه فيبتاعه هو بنفسه

«مسكنه» : كان يقيم فى أواخر أيامه بقصر نشـــان طاش بالاســـتانة ، انعم عليه به جلالة الســـلطان وفيـــه الاثاث والرياش وعربة من الاصطبل العامر يجرها جوادان واجرىعليه

رزقا مقداره خمس وسبعون ليرة عثمانية فى الشهر . فكان قبل مرضه الاخير يقيم معظم النهار فى منزله فاذا كان الاصيل ركب العربة لترويح النفس فى متنزه كاغدخانةبضواحىالاستانة وكان كثير القيام لاينام الا الغلس الى الضحى

«مجلسه وخطابه» : كان اديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخـــرج لوداعهم ولا يستنكف منزيارة أصغرهم علىامتناعه من زيارة أكبرهم اذاظن فى زيارته تزلفا . وكان ذا عارضة وبلاغة لايتكلم الا اللغةالفصحى بعبارات واضحة جلية . واذا آنس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح فاذا كان السامع عاميا تنازل الى مخاطبته بلغة العامة . وكان خطيبا مصقعا لم يقم فى الشرق أخطب منه . وكان قليل المزاح رزينا كتوما قد يخاطب عشرات من الناس فى اليوم فيبحث مع كل منهم فى موضوع يهمه ، فاذا خرج جليسه كان خروجه آخر عهده بذلك الموضوع حتى يعود هو اليـــه بشأنه

«أخلاقه» : كان حر الضمير صادق اللهجــة عفيف النفس رقيق الجانب وديعا مع انفة وعظمة، ثابت الجأش قد يساق الى القتل فيسير اليه سير الشجاع الى الظفر . وكان راغبا عنحطام الدنيا لايدخر مالا ولا يخاف عوزا . ومما رواه المرحوم أديب اسحاق : أن جمال الدين لما أبعد من مصر أنزل فى الســـويس خالى الجيب فأتاه السيد النقادى قنصل ايران فى ذلك الثغر ومعه نفر من تجار العجم قدموا له مقدارا من المال على ســبيل الهدية أو القرض الحسن ، فرده وقال لهم : «احفظوا المال فأنتم اليه أحوج ان الاسد لايعدم فريسة حيثما ذهب» وكان مقداما حاثا على الاقدام فلا يخرج جليسه من بين يديه الا وقد قام فى نفسه محرض على العلى منشط على السعى فى سبيله . ولكنه كان على فضله لايخلو من حدة المزاج ولعلها كانت منأكبر الاسباب لما لاقاه من عواقب الوشاية

«عقله» : كان ذكيا فطنا حاد الذهن سريع الملاحظـــة يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك السرائر دقيق النظر فى المسائل العقلية قوى الحجة ذا نفوذ عجيب على جلسائه فلا يباحثه احد فى موضوع الا شعر بانقياد الى برهانه وربما لايكون البرهان بحد ذاته مقنعا . وكان مع ذلك قوى الذاكرة حتى قيل انه تعلم اللغة الفرنساوية أو بعضها وصار يقدر على الترجمة منهـــا ويحفظ من مفرداتها شيئا كثيرا فى أقل من ثلاثة أشهر بلا استاذ الا من علمه حروف هجائها يومين

«علومه» : كان واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقليـــة وخصوصا الفلسفة وفلسفة تاريخ الاسلام والتمدن الاسلامى وسائر أحوال الاسلام . وكان يعرف اللغات الافغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنساوية جيدا مع المام باللغتين الانجليزية والروسية . وكان كثير المطالعة لم يفته كتاب كتب فى آداب الامم وفلسفة أخلاقهم الا طالعه . وأكثر مطالعاته فى اللغتين العربية والفارسية

«آماله وأعماله» : يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذى كان يصوب نحوه أعماله والمحور الذى كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين فى سائر اقطار العالم فى حوزة دولة واحدة اسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل فى هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا ولكنه مع ذلك لم يتوفق الى ما أراده فقضى ولم يدون من بنات افكاره الا رســـالة فى نفى مذهب الدهريين ورسائل متفرقة فى مواضيع مختلفة قد تقدم ذكرها ولكنه بث فى نفوس أصدقائه ومريديه روحا حية حركت هممهم وحددت اقلامهم فانتفع الشرق وسوف ينتفع بأعمالهم

الشيخ محمد عبده

مفتى الديار المصرية

١٢٥٨ - ١٣٢٣ هـ الموافق ١٨٤٢ - ١٩٠٥ م

ترجمة حياته

نشأ الفقيد في قرية صغيرة (محلة نصر) من أبوين فقيرين فلم يمنعه ذلك من الارتقاء بجده واستعداده حتى بلغ منصب الافتاء وأصبح علما فى الشرق وقطبا من أقطاب الدهر سينقش اسمه على صفحات الايام ويبقى ذكره ما بقى الاسلام

ولد عام ١٢٥٨ هـ وأبوه يتعاطى الفلاحة وقد أدخل فيها أولاده الا محمدا لأنه توسم فيه الذكاء فأراد أن يجعله من الفقهاء . فأدخله كتاب القرية فتردد اليه حينا ثم أرسله الى الجامع الأحمدى فى طنطا أقام فيه ثلاث سنوات ثم نقله الى الجامع الازهر فقضى فيه عامين لم يستفد فيهما شيئا وهو ينسب ذلك بالاكثر الى فساد طريقة التعليم

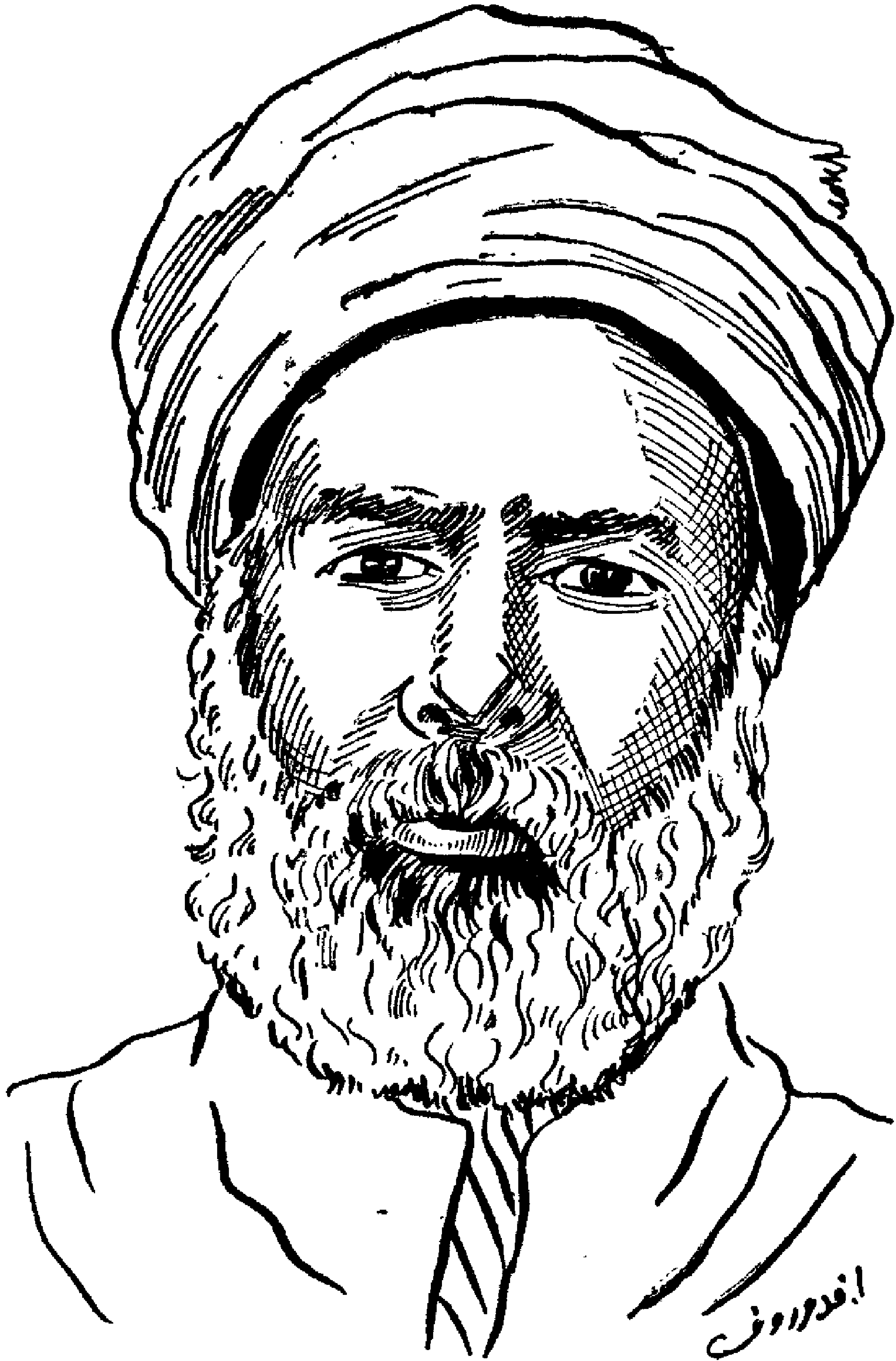
ثم انتبه لنفسه ولم ير بدا من تلقى العلم فاستنبط لنفسه أسلوبا فى المطالعة وأعمل فكرته فى تفهم ما يقرأه فاستلذ العلم واستغرق فى طلبه فأحرزمنه جانبا كبيرا على مايستطاع ادراكه بتلك الطريقة

واتفق أن ورد على مصر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) السيد جمال الدين الافغانى فيلسوف الاسلام وصاحب الترجمة لا يزال فى الازهر وقد أدرك الثلاثين من عمره . وتولى جمال

الدين تعليم المنطق والفلسفة فانخرط الفقيد في سلك تلامذته مع جماعة من نوابغ المصريين تخرجوا على جمال الدين فخرجوا لا يشق لهم غبار كان الرجل نفخ فيهم من روحه ففتحوا أعينهم واذا هم في ظلمة وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه فضلا عن العلم والفلسفة روحا حية ارتهم حالهم كما هي آذ تمزقت عن عقولهم حجب الاوهام فنشطوا للعمل في الكتابة فأنشأوا الفصول الادبية والحكمية والدينية • وكان صاحب الترجمة الصق الجميع به وأقربهم الى طبعه وأقدرهم على مباراته • فلما قضي على جمال الدين بالابعاد من هذه الديار قال يوم وداعه لبعض خاصته : « قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالما »

وتقلب الفقيد في بعض المناصب العلمية بين تدريس في المدارس الاميرية وتحرير في الوقائع المصرية وكتابة في الدوائر الرسمية . حتى اذا كانت الثورة العرابية ، فاشترك اشتراكا فعالا فيها ••• ولما احتل الانجليز مصر ألقي القبض على الشيخ محمد عبده في جملة الذين قبض عليهم وحوكموا فحكم عليه بالنفي لأنه أفتى بعزل الخديو توفيق باشا فاختار الاقامة في سورية فرحب به السوريون وأعجبوا بعلمه وفضله فأقام هناك ست سنوات فاغتنموا اقامته بينهم وعهدوا اليه بالتدريس في بعض مدارسهم

وانتقل من سورية الى باريس فالتقى فيها بأستاذه وصديقه جمال الدين وكانا قد تواعدا على اللقاء هناك فأنشآ جريدة العروة الوثقى وتحريرها منوط بالشيخ فكانت لها رنة شديدة في العالم الاسلامي ولكنها لم تعش طويلا • وتمكن الشيخ في أثناء اقامته بباريس من الاطلاع على أحوال التمدن الحديث وقرأ اللغة الفرنسية على نفسه حتى أصبح قادرا على المطالعة فيها . ثم سعى بعضهم في اصدار العفو عنه فعاد الى مصر فولاه الخديو القضاء وظهرت مناقبه ومواهبه فعين مستشارا في محكمة



الشيخ محمد عبده

الاســتئناف وعين عضوا فى مجلس ادارة الازهر وعين أخيرا مفتيا للديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) وما زال فى هذا المنصب حتى توفاه الله فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ ولم يعقب ذكرا يبقى به اسمه ، ولكنه خلف آثار يخلد بها ذكره

مناقبه وأعماله

كان ربع القامة أسمر اللون قوى البنية حاد النظر فصيح اللسان قوى العارضة متوقد الفؤاد بليغ العبارة حاضر الذهن سريع الخاطـر قوى الحافظة . وقـد سـاعده ذلك على احراز ما أحرزه من العلوم الكثيرة الدينية والعقلية والفلسفية والمنطقية والطبيعية وتلقى اللغة الفرنساوية وهو فى حدود الكهولة فى بضعة أشهر . وكان شديد الغيرة على وطنه حريصا على رفع شأن ملته وذاع ذلك عنه فى العالم الاسلامى فكاتبه المسلمون من اربعة أقطار المسكونة يستفتونه ويستفيدون من علمه وهو لا يرد طالبا ولا يقصر فى واجب

ناهيك بما عهد اليه من المشروعات الوطنية فقد كان القوم لا يقدمون على عمل كبير الا رأسوه عليه أو استشاروه فيه . فرأس الجمعية الخيرية الاسلامية وألف شركة طبع الكتب العربية وشارك مجلس شورى القوانين فى مباحثه . وآخر ما عهـد اليه تنظيم مدرسة يتخرج فيها قضاة الشريعـة ومحاموها . فضلا عما اشتغل فيه من التأليف والتصنيف وما كان يستشار فيه من الامور الهامة فى القضـاء أو الادارة بالمصـالح العامة والخاصة . وبالجملة فقد كان كنز فوائد للقريب والبعيـد بين افتاء ومشـورة واحسـان وكتـابة ومداولة ووعظ وخطابة ومباحثة ومناظرة واستنهاض وتحريض وتنشيط وغير ذلك

على أن عظمتـه الحقيقية لا تتوقف على ماتقـدم من أعمـاله الخيرية أو العلميـة أو القضـائية وانمـا هى تقوم بمشروعه الاصلاحى الذى لا يتصدى لمثله الا أفراد لا يقوم منهم فى الامة

الواحدة مهما طال عمرها الا بضعة قليلة . وهـــذا ما أردنا بسطه على الخصوص فى هذه العجالة

العظمة الحقيقية

تختلف العظمة شـــكلا وأثرا باختـــلاف السبيل الذى يسعى صاحبهـا فيـه أو الغرض الذى يرمى اليه . فمنهم العظيم فى السياســـة أو الحـرب أو العلـــم أو الدين ومن العظماء من يوفق الى اتمـام عمله ومنهم من يرجـع بصفقـة الخاسر من نصف الطريق أو ربعه أو عشره على أن أكثر العظماء انما يأتون العظائم لمجرد الرغبة فى الشهرة الواسعة ويغلب أن يكون ذلك فى رجال الحرب . وهؤلاء تنحصر ثمار أعمالهم في أنفسهم أو أهليهم أو أمتهم على انهـم لا يستطيعون نفعـا لأنفسهم الا بضر الآخرين ـ اعتبر ذلك فى سير كبار الفاتحين كالاسكندر وبونابرت وغيرهما فكم سفكوا فى سبيل عظمتهم من الدماء أو ارتكبوا من المحرمات وكان النفع عائدا على أنفسهم أو أمتهم ولم يطل مكثه الا قليلا

واما رجال العلم فعظمتهم تقوم بما ينيرون به الاذهان من الاصول العلمية او يكتشفونه من أســـباب الامراض والوقاية منها أو يضعونه من النظامات والقوانين أو غير ذلك . ونفعهم يشمل القريب والبعيـــد الرقيع والوضيع ولايسفكون فى سبيل نشره دما ولايرتكبون محرما وهو باق مابقى الانســـان وينمو بنمو المدنية

وأما رجال الدين ومن جرى مجراهم من واضعى الشرائع والاحكام فتأثيرهم اوسع دائرة واعم شمولا لأنه يتناول البشر على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم رجالا ونساء كبارا وصغارا وعليهم يتوقف نظام الاجتماع وآدابه وأخلاق الناس وعاداتهم وعلائقهم بعضهم ببعض . وعظماء الدين فئتان : الفئة الاولى

واضعوا الشرائع كالانبياء أو من فى معناهم ممن ينسبون أعمالهم الى ماوراء الطبيعة . والفئة الثانية المصلحون الذين يصلحون الدين بعد فساده ــ لأن الدين اذا مر عليه بضعة قرون فسد وتغير شكله وانقلب وضعه تبعا لمطامع الذين يتولون شؤونه فتفسد الامة وينحط شأنها حتى يقوم من يصلحه ويعيده الى رونقه • ووضع الاديان عمل شاق قل من يفوز به والاصلاح الدينى لايقل مشقة عنه . وربما كان ادخال دين جديد أيسر من اصلاح دين قديم . فالديانة المسيحية لم تكلف البشر فى قيامها من الدماء أكثر مماكلفتهم فى اصلاحها . على أن مايضيعه رجال الدين فى نشره من الدماء يعوضونه بسرعة انتشاره اعتبر ذلك فى الفرق بين النصرانية والاسلام فى قيامهما . ويقال نحو ذلك فى الاصلاح فقد طلبه وسعى فيه غير واحد من رجال النصرانية فلم يتفق منهم الى اصلاح كبير غير لوثير لأن أهل السياسة نصروه . ولابد من استعداد الاذهان لقبول الاصلاح وتهيئة الاسباب الاخرى . فكم نهض من المصلحين بالسيف فغلبوا على امورهم وذهب سعيهم عبثا . أما المصلحون بالموعظة الحسنة والتعليم فعملهم بطىء ولكنه راسخ فى الاذهان واصبر على كوارث الحدثان ــ والشيخ محمد عبده واحد منهم

هو وجمال الدين

نشأ الشيخ محمد عبده نير البصيرة حر الضمير وربى فى الاسلام وتعلم علومه فشب غيورا عليه ثم اطلع على علوم الامم الراقية من أهل هذا التمدن ودرس تاريخ الاجتماع ونواميس العمران فرأى الاسلام فى حاجة الى نهضة ترفع شأنه وتجمع كلمته . واتفق اجتماعه بالسيد جمال الدين الافغانى فأخذ عنه الفلسفة والمنطق

والحكمة الشرقية وكان جمال الدين غيورا على الاسلام راغبا في جمع كلمته ورفع شأنه فتوافقا في الغاية ولكنهما اختلفا في الوسيلة . لأن جمال الدين سعى في ذلك من طريق السياسة فأراد جمع شتات المسلمين في أربعة أقطار العالم تحت ظل دولة اسلامية واحدة وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا وانما جعل همه السعي الى تلك الغاية فلم يوفق الى غرضه لأسباب عمرانية طبيعية لامحل لذكرها . وكان الشيخ محمد عبده رفيقه في كثير من مساعيه واطلع على دخائل أموره وعرف أسباب حبوطه فعلم أن جمع كلمة المسلمين ورفع شأنهم من طريق السياسة لايتيسر الوصول اليه فسعى فيه من طريق العلم . فجعل همه رفع منار الاسلام وجمع كلمة المسلمين بالتعليم والتهذيب وتقربهم من اسباب المدنية الحديثة ليستطيعوا مجاراة الامم الراقية في هذا العصر . ورأى ذلك لايتأتى الا بتنقية الدين مما اعتوره من الشوائب التى طرأت عليه بتوالي العصور وتغالب الدول واختلاف أغراض أصحابها وائمتها كما أصاب النصرانية في القرون المتوسطة اذ تمسك الناس بالعرض وتركوا الجوهر واستغرقوا في الاوهام ونبذوا الحقائق . والسبيل الوحيد لمغالبة الاوهام والخرافات انما هو العلم الصحيح على مابلغ اليه في هذا العهد . وعلم الفقيد رحمه الله أن محور العلوم الاسلامية اليوم مصر ومركز العلم بمصر أو في العالم الاسلامي كافة « الجامع الازهر » فرأى انه اذا أصلح الازهر فقد أصلح المسلمين فسعى جهده في ذلك فاعترضه أناس من اهل المراتب يفضلون بقاء القديم على قدمه واستنصروا العامة عليه وغرسوا في أذهانهم ان المفتي ذاهب بالمسلمين الى مهاوى الضلال والبدع . فلم يهمه قولهم لعلمه ان ذلك نصيب أمثاله من قديم الزمان — على انه لم ينجح في اصلاح الازهر الا قليلا ولكنه وضع

الاساس ولابد من رجوع الامة الى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين فيكون الفضل له فى تأسيسها

على ان الجانب الاعظم من عقلاء المسلمين وخاصتهم يرون رايه فى اصلاح حالة الدين ورجاله. وربما سبقه كثيرون منهم الى الشعور بحاجة المسلمين الى ذلك ولاسيما المتخرجين بالعلوم العصرية من الناشئة المصرية ولكنهم لم يجسروا على التصريح بأفكارهم فى غير المجتمعات الخصوصية لئلا ينسبهم الناس الى المروق من الدين ، فلما جاهر محمد عبده برايه وافقوه وصاروا من مريديه ونصروه بألسنتهم واقلامهم . فحاجة المسلمين الى الاصلاح ليست هى اول من انتبه اليها ولكنها اول من جاهر بها كما أن لوثير المصلح المسيحى ليس أول من انتبه لحاجة النصرانية الى الاصلاح ولكنه أول من جاهد فى سبيلها وقد فاز بجهاده لقيام السياسة بنصرته . واما مصلح المسلمين فكانت السياسة ضده وانما حملة على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارته الادبية ومنصبه الرفيع فى الافتاء

الاسلام والمدنية

فلما صرح الشيخ محمد عبده بحاجة المسلمين الى الاصلاح انقسم المسلمون الى فئتين : فئة ترى بقاء القديم على قدمه وهم حزب المحافظين ، وفئة ترى حل القيود القديمة واطلاق حرية الفكر والرجوع الى الصحيح من قواعد الدين ونبذ ماخالطه من الاعتقادات الدخيلة . وكان رحمه الله زعيم هذه الفئة يناضل عن مبادئها بلسانه وقلمه وبكل جارحة من جوارحه . وكانت مساعيه من هذا القبيل ترمى الى غرضين رئيسيين : الاول تنقية الدين الاسلامى من الشوائب التى طرات عليه ، والثانى تقريب المسلمين من أهل التمدن الحديث ليستفيدوا من ثمار مدنيته علميا وصناعيا وتجاريا وسياسيا. فاهل العصبية الاسلامية يرون هذا التقريب مغايرا لما يرجونه

من استقلال المسلمين بالجامعة السياسية لأن مجاراة أهل التمدن الحديث بأسباب مدنيتهم وتسهيل الاختلاط بهم يضعف عصبية الاسلام على زعمهم ويبعث على تشتيت عناصره فيستحيل جمعها فى ظل دولة واحدة . ولكن الشيخ عبده كان يرى ذلك الاجتماع السياسي مستحيلا فى هذه الحال فلم يشأ أن يضيع وقته كما أضاعه أستاذه وصديقه جمال الدين وان يخسر فائدة تقرب المسلمين من أسباب هذا التمدن فسعى فى ذلك بما نشره من فتاويه المتعلقة بالربا والموقوذة ولبس القبعة ونحو ذلك مما يقرب المسلمين من الامم الاخرى ويسهل أسباب التجارة

تنقية الدين

وأما تنقية الدين الاسلامى من الشوائب الطارئة عليه فأساس سعيه فيها انه أطلق لفكره الحرية فى تفسير القرآن ولم يتقيد بما قاله القدماء أو وضعوه من القواعد التى يحرم الائمة تبديل شيء منها . فرأى أن يحل نفسه من هذه القيود ويفسر القرآن على مايوافق روح هذا العصر فيجعل أقواله وآراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح المبنى على المشاهدة والاختبار ولنواميس العمران على ما بلغ اليه هذا العلم الى الآن مع مطابقته لاحكام العقل وأصول الدين كما فعل النصارى فى تفسير الكتاب المقدس بعد ثبوت مذاهب العلم الجديد. وهو اوعر مسلكا فى الاسلام لارتباط الدين بالسياسة فيه . والقرآن أساس الدين والدنيا عندهم فيعلقون على تفسيره أهمية كبرى لأنه مرجع الفقه وغيره من الاحكام الشرعية والسياسية ولذلك رأى أهل السنة تقييده بأقوال الائمة الاربعة وخالفهم الشيعة باستبقاء باب الاجتهاد مفتوحا فلا يرون بأسا فى العدول عن تفسير الى آخر بشروط يشترطونها فى مفسريهم وهم يعرفون عندهم بالائمة المجتهدين

التفسير

وقد توالى على تفسـير القرآن احوال تختلف باختـلاف العصور من الاسـلام الى الآن ترجع الى اربعة عصـور :
الاول العصر الشفاهي : وهو ينحصر فى أيام النبى واصحابه فقد كانوا عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سـورة او آية فهموها وأدركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لأنها بلسانهم وعلى أساليب بلاغتهم ولأن أكثرها قيلت فى أحوال كانت القرائن تسهل فهمها واذا أشكل عليهم شيء منها سألوا النبى فيفسره لهم . وكان التفسير مختصرا بسيطا لسذاجة الدولة الاسلامية يومئذ

ثانيا العصر التقليدى : ونريد به عصر التابعين أو حواليه وكانت الدولة الاسلامية قد اخذت فىالنمو والارتقاء فاحتاجوا الى التوسع فى التفسير وكان اكثرهم أميـين فاذا أعجزهم تفسير بعض الآيات سألوا عنها من أسلم من أهل الـكتاب ولاسيما اليهود المقيمين فى اليمن وكانوا قد اسلموا وظلوا على ماكان عندهم من التقاليد المتناقلة شفاها أو كتابة مما لاتعلق له بالاحكام الشرعية

ثالثا العصر الفلسفى المنطقى : ونريد به تدوين التفسير وضبطه بالقياس الفلسفى والحكم المنطقى بعد أن اختـلط المسلمون بأهلالعلم القديم فى الشام والعراق وفارس واطلعوا على علوم القدماء وفلسفة اليونان والهنـد ونقلوا ذلك الى لسانهم واستخرجوا منه علم الكلام . وكان العرب قد وضعوا العلوم اللسانية وضبطوا معانى الالفاظ واسـاليب التعبير فنظروا فى التفاسير السابقة نظر الناقد ومحصوها وضـبطوها بالقياس العقلى بالاعتماد على قواعد المنطق بما تقتضـيه الفلسفة اليونانية القديمة على نحو مافعله لاهوتيو النصارى قبل ذلك

رابعا العصر العلمى : الذى نحن فيه وهو عصر الفلسـفة

الجديدة المبنية على العلم الطبيعى الثابت بالمشاهدة والاختبار ويمتاز عن العصر السابق باطلاق حرية الفكر من قيود التقليد القديمة التى أغلت السنة أسلافنا وأقلامهم واوقفت مجارى التمدن اجيالا متطاولة. فالشيخ عبده رحمه الله أراد ان ينقل التفسير الى روح هذا العصر فيفسر القرآن بما يطابق أحكام العقل ويحل الاسلام من قيود التقليد . فسار فى هذا الطريق شوطا بعيدا فألقى على طلبة الازهر خطبا كثيرة فى التفسير نشرت فى مجلة « المنار » وطبع بعضها على حدة وكان لها تأثير حسن فى نفوس العقلاء . ولو مد الله فى أجله لاتم هذا العمل ولكنه قضى آسفا خائفا ولسان حاله يردد هذين البيتين وهما :

ولست أبالى أن يقال محمد   ابل أو اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه   احاذر أن تقضى عليه العمائم

على انه خلف جماعة من تلامذته ومريديه أكثرهم من أهل العلم وارباب الاقلام وفيهم نخبة كتاب المسلمين وشعرائهم فى هذا العصر. واكثرهم مجاهرة بنصرته واذاعة لآرائه صديقنا السيد رشيد رضا صاحب « المنار الاسلامى »

والشيخ محمد عبده زعيم نهضة اصلاحية لاخوف منها على الدماء أو الارواح واكثر نهضات الامم فى سبيل اصلاحها لاتخلو من اهراق الدماء ، فهو رجل عظيم يجدر بالمسلمين أن يبكوه وأن يقتفوا آثاره فى التوفيق بين الاسلام والمدنية الحاضرة وتنقيته مما الم به بتوالى الازمان وذلك ميسور لمن اطلق فكره من قيود التقليد واسترشد بما يهديه اليه العقل الصحيح بالاسناد الى العلم الصحيح . على اننا نرجو أن لاتعدم هذه النهضة من يخلف الامام الفقيد فى الانتصار لها والعمل بها والله على كل شىء قدير

السيد عبد الرحمن الكواكبى

١٢٦٥ ـ ١٣٢٠ هـ الموافق ١٨٤٨ ـ ١٩٠٢ م

العظمة والشهرة صديقتان يغلب أن تتصاحبا فلا تكون احداهما بدون الاخرى . ولكنهما كثيرا ماتفترقان فتكون العظمة بلا شهرة والشهرة بلا عظمة . فترى بين أهل الشهرة الواسعة من اذا لقيتهم وسبرت غورهم رأيتهم كالطبل يدوى صوته الى بعيد وجوفه فارغ . وانهم انما نالوا تلك الشهرة بما طبعوا عليه من الميل الى نشر محامدهم فى الصحف فيقرأها الناس ويتحدثوا بها . وقد ينفقون المال ويتحدون أوعر أسباب السعى فى هذا السبيل . وترى بينهم من لامحمدة له فينتحل محامد غيره أو تكون له «حبة منها فيجعلها قبة» فاذا نشر ذلك عنه فى صحيفة أو نشرة أو كتاب حمله وطاف به فى الاهل والاصدقاء يترنم بقراءته عليهم ويتلذذ بما يلقى من آيات الاعجاب وخصوصا فى هذه البلاد ـ بلاد المجاملة التى يزداد فيها المغرور غرورا اذ لايسمع من الناس الا اطراء واعجابا ولو كانت حاله تدعو الى التقريع والتعنيف ـ ويعدون ذلك من آداب الحديث

فما كل شهير عظيم ولا كل عظيم شهير فكم بين ظهرانينا من رجال توفرت فيهم شروط العظمة ولو رافقتها الاسباب لاتوا بالامور العظام . وقد تظهر مواهبهم من خلال أعمالهم وان ضاقت دائرة العمل . ولكنهم لرغبتهم عن الشهرة لايعرف اسماؤهم الا القليلون فاذا أصابهم سوء أذاع مريدوهم أخبارهم وتحدثوا بأفضالهم

ومن هذا القبيل المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى الحلبى



عبد الرحمن الكواكبي

فقد جاء مصر سنة ١٣١٨ هـ وأقام فى قلب العاصمة ومع سعة علمه وغزارة مادته لم يسمع بذكره أحد ولا عرفه الا الاصدقاء والاخصاء . وهناك أناس يقصرون عن ادراك بعض منزلته علما وفضلا ولكنهم لاتطأ أقدامهم مصر حتى تتناقل الصحف أخبارهم بما ينشرونه فيها من نفثات أقلامهم أو ثمار قرائحهم ــ وقد لاتكون تلك الثمار شهية ــ وانما يعمدون الى نشرها رغبة فى الشهرة . فالكواكبى رحمه الله لم يكن من أولئك ولكن همه كان منصرفا الى خدمة الوطن ونشر المبادىء الصحيحة فيه بالتأليف والتلقين بعد أن قضى معظم العمر فى خدمة الحكومة العثمانية فى حلب وقاسى أمورا صعابا من وشايات ذوى الاغراض فلم يلق تربة تصلح لغرس مبادئه فجاء مصر ونشر بعض كتبه فعاجله الاجل فمضى ومضت معه امانيه وهى شبيهة بأمانى المرحوم السيد جمال الدين الافغانى وقد استهلك فى سبيلها كما استهلك ذاك من قبله

نشاته وميوله

آل الكواكبى اسرة قديمة فى حلب هاجر اليها أجدادهم منذ أربعة قرون ولهم شهرة واسعة ومقام رفيع فى حلب والاستانة . يرجعون بأنسابهم الى السيد ابراهيم الصفوى أحد أمراء أردبيل العظام . ولهم آثار مشهورة منها المدرسة الكواكبية فى حلب ونبغ منهم جماعة كبيرة من العلماء ورجال الادارة ومنهم فقيد العلم السيد عبد الرحمن وقد ولد فى حلب سنة ١٢٦٥ هـ وأبوه الشيخ احمد الكواكبى أحد مدرسى الجامع الاموى الكبير

تلقى السيد عبد الرحمن مبادىء العلم فى بعض المدارس الاهلية ودرس العلوم الشرعية فى المدرسة الكواكبية واتقن العربية والتركية وبعض الفارسية ووقف على العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحديثة . وكان ميالا من حداثته الى صناعة القلم فاشتغل فى تحرير جريدة «فرات» التى كانت

تصدر فى حلب باسم الحكومة وهو فى السابعة والعشرين من عمره . حررها خمس سنوات وأنشأ فى أثناء ذلك جريدة سماها «الشهباء» واشتغل بخدمة الحكومة فتقلب فى عدة مناصب علمية وادارية وحقوقية وأهل النقـــد يذكرون فضله فى كل واحدة منها كبيرها وصغيرها لان اقتدار الرجل يظهر فى الصغائر كما يظهر فى الكبائر . وكان حب الاصلاح وحرية القول والفكر باديتين فى كل عمل من أعماله . فلم يرق ذلك لبعض أرباب المناصب العليا فوشوا به فتعمدت الحكومة حبسه ثم جردوه من أملاكه . فلم يقلل ذلك شيئا من علو همته فغادر الوطن وطلب بلاد الله فجاء مصر ثم خرج منها سائحا فطاف زنجبار والحبشة وأكثر شطوط شرق آسيا وغربيها ثم رجع الى مصر

رحلته فى جزيرة العرب

ومما يذكر له ونأسف لضياع ثماره انه رحل رحلة لم يسبقه أحد اليها ويندر أن يستطيعها أحد غيره . وذلك انه أوغل فى اواسط جزيرة العرب فأقام على متون الجمال نيفا وثلاثين يوما فقطع صحراء الدهناء فى اليمن . ولا ندرى ما استطلعه من الآثار التاريخية أو الفوائد الاجتماعية فعسى أن يكون ذلك محفوظا فى جملة مخلفاته . وتحول من هذه الرحلة الى الهند فشرقى أفريقيا ايضا وعاد الى مصر وكان أجله ينتظره فيها

صفاته

كان الكواكبى واسع الصدر طويل الاناة معتدلا فى كل شىء وكان عطوفا على الضعفاء حتى سماه الحلبيون «أبا الضعفاء» وجاء فى الرائد المصرى انه كان له فى بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبعث الى المحاكم من يأمنهم من أصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين

وكان واسع الاطلاع فى تاريخ المشرق على العمـــوم وتاريخ

الممالك العثمانية على الخصوص وله ولع فى علم العمران . والف كتبا لم ينشر منها الا كتاب «طبائع الاستبداد» وهو فريد فى بابه . وكتاب «أم القرى» ومع تمسكه بالاسلامية والمطالبة بحقوقها والاستهلاك فى سبيل نصرتها فقد كان بعيــــدا عن التعصب يستأنس بمجلسه المسلم والمسيحى واليهودى على السواء لانه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة

ومن يقرأ ترجمة الكواكبى والافغانى وغيرهما من رجال هذه النهضة ويدرس أعمالهم والاحوال المحيطة بهم يعترف بفضلهم فى نصرة الحقيقة وتأييد الحق والحرية



قاسم أمين

١٢٨٢ – ١٣٢٦ الموافق ١٨٦٥ – ١٩٠٨ م

كان للمرأة العربيـــة مقام رفيع فى التمدن العربى القديم فتعاطت الكتابة وتولت الادارة وعانت سائر أعمال الرجال فى الالف الثالث قبل الميلاد اى منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة . وعرفنا دولا عربية فى أعالى الحجاز لايتولى الملك فيها الا النســـاء . ناهيك بما تناقله العرب من أخبار بلقيس صاحبة اليمن والزباء (زينوبيا) صاحبة تدمر . عدا اللواتى اشتهرن فى أثنـــاء الجاهلية من العرافات والكواهن ولايتولى الكهانة الا المتازون بالعقل والتدبير بعد أن ينالوا المقـــام الرفيع ويحرزوا العلم الواسع . ويقال بالاجمال أن المرأة فى الجاهلية كان لها شأن وارادة وانفة ورأى وحزم . ونبغ غير واحدة منهن قبيـــل الاسلام وفى أوائله فى السياسة والحرب والادب والشعر والتجارة والصناعة على أثر ماحصل من النهضة فى النفوس والعقول يومئذ فاشتهر جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال . وممن اشتهرن بالحزم والرأى خديجة بنت خويلد زوج النبى واسماء بنت أبى بكر وسكينة بنت الحسين وغيرهن (١)

ظلت المرأة العربية على انفتها وعزة نفسها وسمو منزلتها فى أيام الراشدين وزاد توســـعها فى طلب المعرفة اذ اتسع المجال للعقول والمواهب فنبغت غير واحدة بالشعر والادب وأتت بعضهن أعمالا يعجز عنها كبار الرجال . فلما افضت

(١) ترى تفصيل ذلك فى الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامى

الدولة الى بنى أمية فى اواسط القرن الاول للهجرة أصاب المرأة العربية صدمة قوية غيرت كثيرا من طبائعها لتكاثر الجوارى والغلمان فى دورالامراء وانغماس بعض الخلفاء فى الترف والقصف وانتشار الغناء والسكر وتكاثر المخنثين فى المدن وتوسطهم بين الرجال والنساء بالباطل

ولما استبحر عمران المسلمين فى العصر العباسى زادوا انغماسا فى القصف واللهو والخلاعة وفسدت النية بين الرجل وامرأته وهو صاحب الذنب لأنه بدد شعائره وأمياله بين عدة نساء فقلت ثقة امرأته به . ولم ينضج التمدن فى ذلك العصر حتى تنوسيت المرأة العربية وذهبت حريتها وغيرتها وانحطت نفسها وذهبت انفتها واستقلال فكرها . فاحتقرها الرجل وساء الظن بها وصار يعاشرها على غل وسوء راى يقفل عليها الابواب والنوافذ . وأصبح الطعن فى طباعها وسوء سريرتها شائعا على ألسنة الناس حتى الفوا فيها الروايات والقصص ونظموا بها الشعر وتفننوا فى وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة فى تحذير الناس من المراة وعدم الوثوق بها . هذه قصة « ألف ليلة وليلة » تمثل حال المرأة فى العصور الاسلامية الوسطى بعد شيوع التسرى وانغماس المسلمين فى الترف . واما الاشعار فاليك ما قاله أبو العلاء المعرى :

اذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا يدخل على الحرم الوليد
وان خالفتنى واضعت نصحى فأنت وان رزقت حجا بليد
الا ان النساء حبال غى بهن يضيع الشرف التليد

وأصبح الكاتب اذا اراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ماقاله أبو بكر الخوارزمى اذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه ببنته وهو قوله :

« ولولا ماذكرته من سترها . ووقفت عليه من غرائب أمرها . لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات . ودفن البنات من المكرمات . ونحن



قاسم أمين

فى زمان اذا قدم أحدنا فيه الحرمة . فقد استكمل النعمة . واذا زف كريمة الى القبر . فقد بلغ امنيته من الصهر . قال الشاعر :

ولم ار نعمة شــملت كريما كنعمة عورة ســترت بقبر

وقال آخر :

تهوى حياتى واهوى موتها شفقا والموت اكرم نزال على الحرم

وقال آخر :

وددت بنيــتى وودت انى وضعت بنيتى فى لحــد قبر

وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنــين وموت البنات

وقال آخر :

ســمينها اذ ولدت تموت والقبر صهر ضــامن وبيت

هذا مثال من آراء ادباء المسلمين وشعرائهم فى المراة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة وقد زادت حطة وصغارا فى الاجيال الاسلامية الوسطى تبعا للتقهقر العام وبلغت غاية ذلك فى القرون الاخيرة قبل النهضة وقد تساوت فى ذلك الانحطاط المراة المسلمة وغير المسلمة من نساء الشرق الاســلامى على الاجمال والناس سكوت . لأن القرائح جامدة والنفوس ميتــة بما تولى الناس من فساد الاحكام وتفشى الجهل

فلما أخذ القوم بأطراف التمدن الحديث واستنارت العقول بالعلم انتبه العقلاء الى المراة وعمدوا الى النظر فى تحسين حالها ورفع شأنها لعلمهم ان الامة يتوقف اصلاحها على اصلاح المراة . فطفقوا يتهامسون فى ذلك تهيبا من مقاومة تيــار العامة الذين يعدون التضييق على المراة من حقوق الرجل

ثم أخذ بعضهم يتظــاهرون بنصرتها وانشــئت المدارس لتعليمها وظهر القائلون بوجوب اصــلاحها وليس بينهم من تصدى للمجاهرة بذلك على الملأ بالكتابة والخطابة لأن الشجاعة الادبية كانت قليلة بيننا . واسبق المسلمين الى طلب الافراج

عن المراة فى هذا العصر الاتراك فى الاستانة لكثرة اختلاطهم بالاجانب وسبقهم فى الاطلاع على أسباب التمدن الحديث . ولذلك كان كتابهم أسبق الى المجاهرة بوجوب رفع الحجاب واول من فعل ذلك من العرب هناك الشيخ احمد فارس صاحب الجوائب

أما فى مصر فما زال العقلاء يتهامسون فى هذا الموضوع وفى غيره مما يشعرون بحاجتهم اليه من الاصلاح الاجتماعى أو الدينى حتى صرح الشيخ محمد عبده بآرائه فلاقى ما لاقاه من المعارضة والنقمة وكانت وجهته الاصلاح الاسلامى على العموم بحل قيود التقاليد وتحكيم العقل فى التفسير والتأويل الى مافيه ترقية شؤون المسلمين . فكثر مريدوه والمؤمنون على أقواله وان قل المجاهرون بذلك على المنابر أو فى الصحف . ومن أولئك القليلون فقيد الامس قاسم بك امين فانه أخذ على عاتقه القيام بأهم أسباب الاصلاح المطلوب نعنى تحرير المراة . تصدى لذلك بشجاعة يندر مثلها

الشجاعة الادبية

الشجاعة الادبية أن يقول الانسان اعتقاده ولو كان فيه مايسيء الكبراء أو يهيج عليه العامة مما يؤول الى الخطرعلى حياته أو مصلحته . واصحاب هذه المنقبة قليلون ولاسيما فى الشرق بعد ماتوالى على أهله من أصناف الذل والخسف . واما فى ابان تمدنه فقد اشتهر من رجاله جماعة تضرب الامثال بشجاعتهم الادبية لسيادة العدل ونزوع ولاة الامور الى نصرة الحق والضرب على ايدى الظالمين . فلم يكن الناس يخافون أن يقولوا مايعتقدون حتى كان الرجل من العامة ربما انتقد الخليفة او الامير فى وجهه لايخشى بأسا وقد تعود المسلمون ذلك من زمن الراشدين . فلما افضت الدولة الى بنى أمية وعمدوا الى الدهاء والشدة فى تأييد سلطانهم أمسكوا على الناس حريتهم . ومع ذلك فقد نبغ غير واحد

بذلوا حياتهم فى سبيل شجاعتهم كما أصاب أبا ذر الغفارى وحجر بن عدى الكندى وسعيد بن جبير وغيرهم . ولا تقتصر تلك الشجاعة على المسائل السياسية او الدينية بل هى لازمة فى العلم والادب فقد عرض «غاليليو» حياته للخطر لمخالفة الاولين فى قولهم عن ثبوت الارض

والانسان من فطرته حر الفكر يدلك على ذلك مايبدو فى كلام الاطفال من الصراحة والحرية ولكن تربيته على الخوف والحذر وتضييق الفكر منذ الصغر بالخرافات والاوهام تقيدان العقل حتى يعجز صاحبه عن التفكير الا على القالب الذى صب عقله فيه ـ فعلى طالب الاصلاح قبل أن يحل لسانه من خوف العقاب أن يحل فكره من قيود التقليد ـ هذه هى الخطوة الاولى نحو الشجاعة الادبية . وجمهور العامة مقيدو الفكر لاتتمشى أفكارهم الا على الخطة التى رسمتها عاداتهم فتبدو آراؤهم مسبوكة فى القوالب التى اقتضتها تربيتهم أو معتقداتهم . فقبل أن نطالبهم بحرية القول أو الشجاعة الادبية يجب علينا أن نعلمهم « حرية الفكر » اى ان نجعلهم ينظرون فيما يعرض لهم من المسائل بعين العقل لابعين الغرض وان يبحثوا عن الحقيقة المجردة بقطع النظر عما غرس فى أذهانهم مما يخالفها فيحكموا عقولهم وليس عاداتهم ومعتقداتهم ذلك مايعبرون عنه باستقلال الفكر

فمتى أطلق الرجل فكره من قيود الغرض أو التقليد بقى عليه أن يصرح بما يرشده اليه عقله اذ قد يكون فى تصريحه مايسوء سواه او يعود عليه بالضرر فيمسك عنه خوفا أو مسايرة فيسكت . وقد يتمادى فى جر المنفعة لنفسه فيقول عكس مايعتقده التماسا لرضى الآخرين ونرى امثلة من ذلك شائعة بيننا لهذا العهد

فالناس من هذا القبيل ثلاث طوائف : طائفة غلبت عليها الاوهام وقيدتها التقاليد فلا تنظر فى الامور الا بعين الغرض وبما تقتضيه تلك القيود فلا يلام أصحابها الا على الجهل. وطائفة

حلت أفكارها من تلك القيود ونظرت فى الامور بعين العقل فظهر لأصحابها فى شؤون العامة خلل يقتضى اصلاحا فمنهم من يسكت عن ابداء رايه خوفا من غضب الجمهور أو مراعاة لرئيس أو صديق — وهو جبن وضعف . ومنهم من لايكتفى بالسكوت عن الحق بل يجارى تيار الجهلاء فيقول عكس مايعتقد — وهو النفاق والرياء . ومنهم من يقول مايعتقده بشجاعة وصراحة لايبالى بما قد يلحقه بسبب ذلك من الضرر — وهى الشجاعة الادبية واصحابها هم رجال الفضل على المجتمع الانسانى ومنهم كبار المصلحين والشارعين . وليس المصلح أو الشارع الا رجلا دعا الناس الى غير ما الفوه أو تعودوه من الاصلاح الدينى أو الاجتماعى وضحى بنفسه أومصلحته فى هذا السبيل — وصاحب الترجمة من أولئك المصلحين

ترجمة حياته

كان أبوه امين بك ابن أمير من أمراء الاكراد أخذ رهينة فى الاستانة على اثر خلاف وقع بين الدولة العثمانية والاكراد. ثم جاء الى مصر على عهد اسماعيل باشا وانتظم فى الجيش المصرى ورقى فيه الى رتبة أميرالاى وتزوج بكريمة أحمدبك خطاب أخى ابراهيم باشا خطاب فولدت له اولادا أكبرهم قاسم صاحب الترجمة

وليس فى ترجمة قاسم أمين مانراه فى تراجم رجال الحرب او السياسة من الحوادث العديدة فقد ربى كما يربى أمثاله من أولاد الوجهاء وتثقف فى مدارس الحكومة المصرية وكان ممتازا من صغره بالذكاء وحدة الذهن ولما أكمل دروسه كان فى جملة الذين اختارتهم الحكومة للارسال الى أوربا يتعلمون على نفقتها على جارى العادة فى ذلك الحين فدرس الحقوق فى فرنسا وعاد الى مصر سنة ١٨٨٥ فتعين وكيلا للنائب العام فى محكمة مصر المختلطة وما زال يرتقى حتى صار مستشارا فى الاستئناف وكان فى كل أعماله مثال الامانة والنشاط

واستقلال الفكر حتى توفاه الله بالسكتة فى ٢١ ابريل عام ١٩٠٩ وهو فى الثالثة والاربعين من عمره

صفاته وأعماله

كان رحمه الله ربع القامة أسمر اللون كثير التفكير قليل الكلام . وكان حر الفكر صادق اللهجة وقد زاده التبحر فى القوانين والنظر فى أقوال الفلاسفة الاجتماعيين استقلالا فى الفكر وصراحة فى القول لأن القضاء يعود صاحبه التمسك بالحق واجلال قدر الحقيقة ، وممارسة القضاة الاحكام وتعودهم اذعان الناس لاقوالهم بلا مراجعة يزيدهم جرأة لابداء آرائهم فى كل مسألة تعرض عليهم ولذلك رأيت المحاباة والرياء نادرين فيهم

وكان كبير النفس شديد الحرص على كرامتها ولذلك رأيناه محبا لأمته راغبا فى رفع منزلتها لأن حب الامة من حب الذات ولا يحب أمته الا الذى يحب كرامة نفسه ومن يتفانى فى خدمة أمته فانما يفعل ذلك حبا بنفسه

واطلع قاسم على أحوال الامم الراقية فى أثناء اقامته بأوربا فتمنى أن تكون أمته مثلها فنظر فى أسباب الرقى فرآها كثيرة لايمكن تناولها دفعة واحدة ولايتيسر تناول شيء منها قبل اصلاح العائلة لأن الامة تكون كما تكون العائلة والعائلة تكون كما تريد المرأة فوجه عنايته الى اصلاح المرأة المسلمة وليس هو أول من رأى ذلك أو فكر فيه كما قلنا ولكنه كان حازما مقداما لايكتفى بالقول والتذمر او الاستسلام على عادة أكثر المفكرين بيننا ومنهم طائفة لا يقلون تعقلا وسدادا عن المفكرين فى العالم المتمدن ولكنهم يقولون ولايفعلون

وهى آفة المشارقة . أما قاسم أمين فكان فعالا اذا اقتنع بصواب فكر أخرجه الى حيز العمل . فلما عرف الطريق المؤدى الى اصلاح أمته بادر الى مباشرته وهو يعلم مايعتور مشروعه من العقبات وما سيلقاه من مقاومة تيار الرأى العام .

لأن اصلاح المرأة يقتضى منحها الحرية ويتناول تقبيح الحجاب والنهى عن الطلاق وتعدد الزوجات مما يعده العامة من قبيل العقائد الدينية وهو ما لم يبحثه الدين الا لضرورة فاضطر أن يبين ذلك فى أثناء بحثه. وبعد اعمال الفكرة ألف كتابه « تحرير المرأة » واسمه ينم على منزلة المرأة المسلمة فى اعتباره فهو يعدها مستعبدة وقد أخذ على نفسه أن يحررها . وعلم أن الناس سيكبرون قوله وينكرون عليه مشروعه ـ حتى المرأة لأنها ألفت الذل وتعودت أن تعتبر نفسها من أدوات المنزل . فلم يكن يتوقع أن يرى ثمرة سعيه فى حياته فرضى أن يضع الاساس لسواه فصدر كتابه المشار اليه بقوله :

« وغاية ما أريد هو أن أستلفت الذهن الى موضوع قل المفكرون فيه لا أن أضع كتابا يوفى الكلام فى شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانسانى. وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونما نباتها فى أذهان أولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها »

ثم بين حاجة المرأة المصرية أو المسلمة الى الاصلاح موجها كلامه الى الخاصة والعقلاء فأورد فصلا فى « ان حال المرأة فى الهيئة الاجتماعية يتبع حال الآداب فى الامة » لايقرأه قارىء الا توسم من خلال سطوره الحماسة ونصرة الحقيقة وصدق اللهجة . فقد افتتح كلامه بقوله :

« انى أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث معى فى حالة النساء المصريات وأنا على يقين انه يصل وحده الى النتيجة التى وصلت اليها وهى ضرورة الاصلاح فيها . هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضوع الفكر منى وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى الى مزاياها وتذكرنى بالحاجة اليها فرأيت الا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر

ثم اخذ يبحث فيعلاقة المراة بالامة ويورد الادلة والبراهين التاريخية والاجتماعية ويستنهض الهمم ويستحث القرائح على العمل بعبارات ملؤها الحماسة والاخلاص قال :

« ولا يركن الى حب السكينة الا أقوام على شاكلتنا . فقد أهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالارض البائرة التى لايصلح فيها نبات . وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعده أهل الوقت حديثا غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الاولى أو قضت به المصالح فى الازمنة

« وكثيرا مايكتفى الكسول وضعيف القوى فى الجدل بأن يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد أن يدفعه فيقول : تلك بدعة فى الاسلام . وما يرمى بهذه الكلمة الا حبا فى التخلص من مشقة الفهم أوالخروج من عناء العمل فى البحث أو الاجراء . كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم واقالهم من أحكام النواميس الطبيعية التى يخضع لسلطانها النوع الانسانى وسائر المخلوقات الحية

« سيقول قوم ان ما أنشره اليوم بدعة . فأقول نعم انى اتيت ببدعة ولكنها ليست فى الاسلام بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها »

وافاض فى بسط الموضوع وتأييده فأفرد فصلا لتربية المراة وهو يعتقد أنها مساوية للرجل لاتختلف عنه الا بما يستدعيه اختلافهما فى الصنف . وان تعليمها العلوم الطبيعية والعقلية والادبية يساعدها علىالقيام بواجباتها المنزلية وترقية نفوس أبنائها . وقسم الكلام فى التربية الى التربية بالنسبة الى الوظيفة الاجتماعية وبالنسبة الى الوظيفة العائلية . ثم تكلم فىالحجاب — وكان قد ألف كتابا بالفرنسية قبل «تحرير المرأة» رد به على كتاب الدوك داركور الذى طعن فيه على المصريين وقبح أخلاقهم وعاداتهم واختصر قاسم فى دفاعه عن الحجاب هناك فأفاض هنا فى حقيقة الحجاب من الوجهة الدينية ومن الوجهة الاجتماعية واستأنف الكلام فى « المراة

والامة » وبين ارتباطهما فى فصل طويل
وختم كلامه بفصل فى « العائلة » وتوسع فى الكلام على الزواج وشروطه وبين ان الشريعة الاسـلامية تأمر بحسن المعاملة وتنهى عن تعدد الزوجات وتقبح الطلاق مسندا أقواله الى القرآن والحديث والقواعد الاجتماعية والاحكام العقلية . وفى كل فقرة دليل على صراحة فكره وصدق لهجته وتفانيه فى خدمة أمته . ومع ذلك فلم يكد يظهر كتابه وتتناقله الايدى حتى تصدى لتخطئته أقوام جاهروا بالسخط على صاحبه بين منتقد وهازىء اما تمسكا بالقديم أو مجاراة لاحساس العامة لارتباط ذلك بمصالحهم وطرق معيشتهم . وفيهم من فعل ذلك عن اعتقاد خالص ولكن بعضهم تجاوز حد الانتقاد الى الاستهزاء والقول الهراء فاتهمه بعضهم بالمروق من الدين وآخرون بالخروج عن الآداب وزعم غيرهم انه يرمى الى قلب الهيئة الاجتماعية المصرية وممالأة الانجليز على ضياع البلاد
أما هو فأغضى عن ذلك كله ورجع الى الموضوع فزاده بسطا بكتاب آخر سماه « المرأة الجـديدة » تكلم فيه عن « المرأة فى حكم التاريخ » من أقدم أزمنته الى الآن فى الامم القديمة والحديثة تأييدا لرأيه فى وجوب تحريرها ورفع شأنها وفى « الواجب على المرأة لنفسها » وفصول فى « الواجب على المرأة لعائلتها » و « التربية والحجاب »
ولم يكتف بطلب تحرير المرأة لكنه وضع لحريتها حدودا وبين مايجب عليها وما يحق لها . ووضع للطلاق نظاما جعله نموذجا تنسج الحكومة على منواله اذا شاءت تحرير المرأة واعطاءها حقها الشرعى والمدنى . فقيد ارادة الرجل فى الطلاق بحكم القاضى او المأذون بعد أن يرشد الزوج الى ماجاء فى الكتاب والسنة من كره الطلاق عند الله وينصحه ويبين له تبعة عمله واذا ابى الاصغاء وسط حكما من اهله وحكما من أهلها للاصلاح بينهما فاذا لم يفلح فى ذلك كله أذن بالطلاق . ولايخفى ما فى ذلك من تدارك الاضرار التى تصيب

العائلات بتسرع البعض فى تنفيذ طلب الطلاق وقد يكون طلبه عن غضب مؤقت فاذا أثاب اليه رشده ندم على مافرط منه

ظهرت كتابات قاسم امين فى هذا الشأن من تسع سنوات فشغلت الالسنة والاقلام عاما أو عامين تنبهت فيهما العقول وثارت الخواطر وقام الناس وقعدوا . وقد لاقى من العقلاء اعجابا كثيرا فنصره بعضهم بألسنتهم واقلامهم وسكت الآخرون مجاراة للعامة ونصرائهم . وأكثر مجاهرة فى نصرته واخذا بيده زميلنا ابراهيم بك رمزى فانه انشأ يومئذ مجلة سماها « المرأة فى الاسلام » جعلها وقفا على هذا المشروع ظهرت سنة ثم احتجبت ثم سكت الناس لاعن اهمال أواغفال ولكنها فترة الحضانة ريثما تتكيف عقول الامة لقبول تلك الآراء ، كالتلقيح بالجواهر النافعة فانه يحدث عند دخوله البدن تهييجا وقد يولد صديدا ثم يسكن فى الظاهر ويعمل عمله رويدا رويدا . وقد أخذت نتائج ذلك السعى تظهر برغبة الناس فى تعليم بناتهم وانشاء المدارس لهذه الغاية . وهذا من أدلة تسرب فكرة قاسم امين بالتدريج

ستتوالى الاجيال وتمر السنون قبل أن تتحرر المرأة المسلمة لكنها ستتحرر وترتقى وتتولى الاعمال الهامة وترفع شأن العائلة كما كانت سالفاتها فى جزيرة العرب منذ آلاف من السنين فاذا بلغت الى ذلك الرقى تذكر انه كان صاحب الفضل عليها ويعظم ذكره فيبقى اسمه منقوشا بحروف من نور على تاريخ الاجتماع الشرقى فى التمدن الحديث

اعماله فى غير تحرير المرأة

قد تمر القرون والناس على ماساقتهم اليه الفطرة فى طلب المعاش لايفقهون معنى الحياة ولا الاجتماع حتى تتمخض الطبيعة فتلد من أبنائها افرادا ينهضون بالامة الى مايظنون فيه خيرها . هؤلاء هم أقطاب العالم ودعائم الهيئة الاجتماعية فمنهم من يرى ثمرة سعيه وينال الفخر بحياته

ومنهم من يراها خلفاؤه ويطوبونه بعد موته

وصاحب الترجمة واحد من هؤلاء لم يجن ثمرة سعيه ولكن معاصريه عرفوا فضله واعترفوا بما طبع عليه من سعة العقل وسداد الرأى والرغبة فى خدمة الامة فعهدوا اليه بأعز المشروعات لديهم نعنى انشاء « الجامعة » فولوه رئاسة اللجنة فلم يدخر وسعا فى سبيلها الى آخر ساعة من حياته

ذكرنا للفقيد فضله فى نصرة المرأة لأنه اظهر أعماله الاجتماعية ولكنه كان راغبا فى سائر سبيل الاصلاح يطلبها من أبوابها القانونية مع تطبيقها على القواعد الاجتماعية الصحيحة لايغريه اطراء ولا يخيفه صياح ولا يستغرب نقمة الناس وتخوفهم من كل جديد . وكان يشير الى ذلك فى أثناء أقواله ويحتاط له ويدفعه . وله فى الاصلاح على اجماله مقالات كان ينشرها فى جريدة « المؤيد » عنوانها « أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ » لم يذكر فيها اسمه وكان لها وقع حسن

وله أقوال مأثورة وجمل يتناقلها الناس عنه ويتخذونها قاعدة أو مثلا نشرتها ادارة الجريدة فى كتاب سمته « كلمات لقاسم بك أمين » هو عبارة عن مختارات أفكاره او مذكراته وفيه حكم فلسفية اجتماعية وشذرات علمية يجدر بالادباء الاطلاع عليها والتمثل بها وهذه أمثلة منها :

❋ ان الذى مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك

❋ اذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل فى مودتك

❋ تعصب أهل الدين وغرور أهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح انه يوجد بينهما خلاف حقيقى لا فى الحال ولا فى الاستقبال مادام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لاتملأ كل فكر بعد كل اكتشاف

يتحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر وفى نهاية كل مسألة تحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغدا يشتغل عقل الانسان بالعلم أى بمعرفة الحوادث الثابتة ولايمنعه ذلك من التفكر فى المجهول الذى يحيط بها من كل طرف. هذا المجهول الذى لاقرار له ولا حد لافى الزمان ولا فى المكان هو دائرة اختصاص الدين

❋ من اختبارى لأرباب الافكار الذين اختلطت بهم يظهر لى ان الحمية عندهم سطحية لاتذكيها نار تتوقد فى القلب. حمية ألفاظ متى انتشرت عادت هباء لاتترك اثرا بعدها

❋ لا أدرى ماهى غاية الكتاب الذين اذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم فى البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من كلمة الاوتوموبيل. ان كان القصد. تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التى اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه أتم من الكلمة العربية وان كان قصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى فقد كلفوا أنفسهم أمرا مستحيلا اذ لم يوجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها

❋ لاتكمل أخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه (انتهت أقواله)

وجملة القول أن قاسم أمين من المصلحين العظام الذين يحفظ التاريخ ذكرهم وتزداد منزلتهم رفعة وفضلهم ظهورا بتوالى الاجيال . وفضله يشمل العالم الاسلامي على الاجمال بنصرته للمرأة المسلمة وله فضل خاص على القطر المصرى بما نشره بين المصريين من النصائح الخاصة بهم . وبما كان له من القدوة الحسنة بين زملائه وأصدقائه وغيرهم . لأنه خدم القضاء ٢٣ سنة كان فيها مثال النزاهة واستقلال الفكر والشجاعة الادبية لايراعى فى الحق صداقة ولا قرابة ولا مقاما

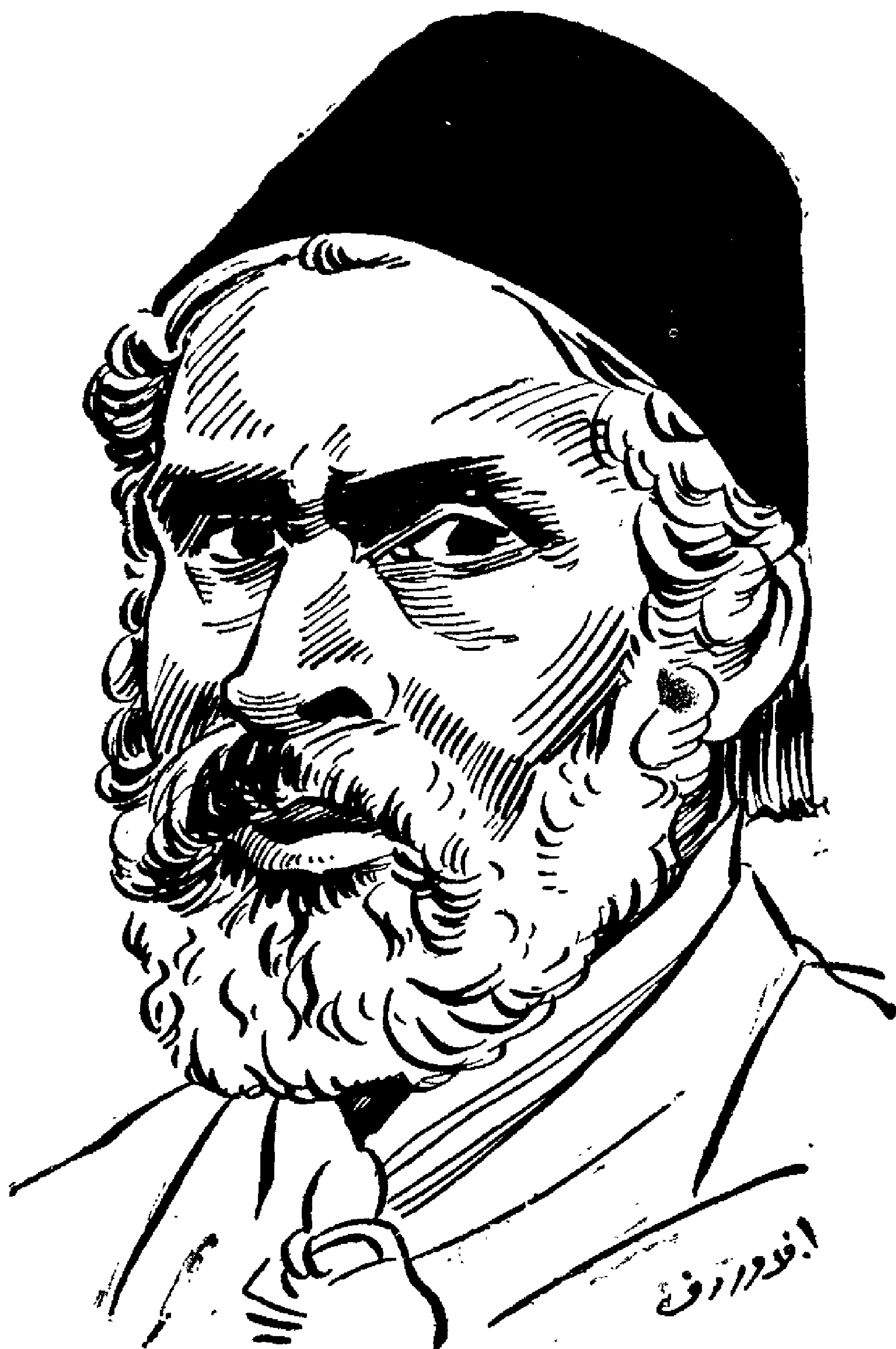
رجال علم وتعليم

١ ـ محمود باشا الفلكى
٢ ـ رفاعة رافع الطهطاوى
٣ ـ عبد الله باشا فكرى
٤ ـ على باشا مبارك

محمود باشا الفلكى

١٢٢٠ – ١٣٠٢ هـ الموافق ١٨٠٥ – ١٨٨٥ م

ولد رحمه الله فى بلدة « الحصة » فى مديرية الغربية سنة ١٢٢٠ هـ ولم يكد يترعرع حتى توفى والده فاحتضنه أخوه وكانت النجابة تتجلى فى وجهه منذ صباه ، فأدخله أخوه مدرسة الاسكندرية سنة ١٢٤٠ هـ فأقبل على الدرس والمطالعة ، واكب على اكتساب العلم بهمة ونشاط فلم نمض عليه بضع سنوات حتى نال رتبة بلوك أمين فانتقل من هذه المدرسة الى غيرها من المدارس الاميرية المصرية وكان حيثما حل اشتهر بالنباهة والذكاء وخصوصا فى الفنون الرياضية فلما أتم دروسه عينته الحكومة استاذا للعلوم الرياضية والفلكية فى مدرسة المهندسخانة وكانت اذ ذاك برئاسة لامبير بك فترقى فيها الى رتبة صاغقول اغاسى انعم بها عليه محمدعلى باشا سنة ١٢٦٢ هـ ولا يخفى ماكان للرتب من المنزلة اذ ذاك فكانت الحكومة لاتنعم على أحد برتبة ما لم يأت عملا عظيما يمتاز به عن اقرانه او يقوم بخدمة ذات بال. فحصول صاحب الترجمة على هذه الرتبة دليل على علو همته ورفع منزلته . على أنها كانت داعيا الى تنشيطه فأكب على التبحر فى العلوم ، فاختارته الحكومة المصرية سنة ١٨٥١ م وبعثت به الى أوربا لاتمام علومه الرياضية والفلكية : فثابر على ذلك تسع سنوات متوالية لازم فى أثنائها مرصد باريس، وكان لايترك فرصة لايستفيد بها شيئا حتى آن الامتحان فقدمه وحاز به قصب السبق فنال الشهادات ، وعاد ظافرا



محمود الفلكى

منصورا فى عهد الامير سعيد باشا فأنعم عليه برتبة أميرالاى وكلفه رسم خريطة للديار المصرية ، فأخذ فى مباشرة هـذا العمل وهو أول من باشره من المصريين ، فرسم خريطـة الوجه البحرى رسما مدققا ، يدل على طول باعه ومهارته فى التخطيط والهندسة ، وهى خريطة مشهورة باسمه يرجعون اليها عند التدقيق ، ولعلها أول مؤلف وضـعه ، ثم أردفه بمؤلفات أخرى بين رسائل وكتب بعضها فى العربية وبعضها فى الفرنسية ، وهاك أسماءها ومواضيعها :

(١) الخريطة المتقدم ذكرها وقد أشرنا الى مانالته من المنزلة الرفيعة

(٢) رسالة فى التقاويم الاسرائيلية الاسلامية نشرها سـنة ١٨٥٥ م بعد أن قدمها لمجمع العلوم فى البلجيك ، وخلاصة موضوعها تعيين زمن ابتداء تاريخ اليهود وهو عندهم فى ٧ أكتوبر سنة ٣٧٦١ قبـل الميلاد . ويريدون به اليوم الذى تمت الخليقة فيه . والنظر فى حدود يومهم وهو يبتـدىء عندهم فى الساعة السادسة افرنجية مساء ويقسم الى ٢٤ ساعة وتقسم الساعة الى ١٠٨٠ قسما يقسم كل منها الى ٧٢ جزءا . وبحث فى أسبوعهم وشهرهم وسنتهم والايام التى تبتدىء بها شهورهم وسنوهم مع تعيـين أعيـادهم ومقارنة تاريخهم بتاريخ الميلاد المسيحى

(٣) رسالة فى الحالة الحاضرة للمواد المغناطيسية الارضيـة بباريس وضواحيها تلاها على المجمع العلمى الفرنسى وقد أعد موادها فى أثناء تجواله فى أوربا

(٤) كتاب فى التقاويم العربية قبـل الاسلام نشره سنة ١٨٥٨ م وهو من أجل كتبه بحث فيه عن يوم ولادة صاحب الشريعة الاسلامية فوصل الى نتيجة مآلها انه ولد فى ٩ ربيع الاول الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ للميلاد

ودقق النظر فى حال التقويم قبل الاسـلام فحكم بانهم

كانوا يعملون بالحساب القمري الصرف . وبحث فيه أيضا عن عمر النبى عند وفاته فبلغ ستين سنة شمسية و ٢٨ يوما أو ٦٣ سنة قمرية و ٣ ايام . وارتأى أن العرب فى جاهليتهم لم يكونوا يعرفون الساعات التى ينقسم اليها اليوم وهو راى كوسين‌دى برسفال المؤرخ الفرنسى وشوسن

(٥) رسالة فى الكسوف الكلى الذى ظهر بدنقلا فى ١٨ يوليو سنة ١٨٦٠ وشاهده هو بنفسه هناك وكانت الرسالة داعيا الى اشتهاره بين علماء الفلك

(٦) رسالة فى الاسكندرية القديمة وصف بها تلك المدينة فى أقدم أزمانها مستشهدا بما اكتشفه هو من شوارعها ومراسحها وأبنيتها وأرفق الكتاب بخريطة اوضح بها ذلك

(٧) رسالة فى الايضاح عن أعمار الاهرام بحث فيها بحثا دقيقا فتبين له الغرض الاصلى من بنائها مطابقتها للشعرى. ومن رأيه أن الاهرام انما بنيت لغرض فلكى . قال مختار باشا المصرى : « وعلى ذكر هذه الرسالة يجدر بى ايراد عبارة هى فى حد ذاتها صادرة عن أفكار شخصية فقد كنت موجودا مع المرحوم عند شروعه فى أخذ مقاييس الاهرام وموقعها من التناسب الفلكى واعلم علم اليقين انه وصل للاطلاع على الغرض من تشييدها اذ وجد تحكيمها فى رسم يقابل بالضبط كوكب الشعرى عند طلوعه ، فكأن الآمر ببنائها أراد أن يجعلها مزولة يعرف بها يوم شم نسيم العلماء ، ولأجل تعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود الكوكب المذكور فيسبغ عليه من آياته رحمة وغفرانا ، اذ ليس يخاف ان كوكب الشعرى كان عند الاقدمين وخصوصا المصريين من أجل المعبودات حتى عبر عنه بعضهم باله الآلهة »

(٨) رسالة فى التنبؤ عن ارتفاع النيل قبل ارتفاعه

(٩) بحث فى ضرورة انشاء مرصد لمراقبة الحوادث الجوية فى مصر

(١٠) رسالة فى مقيـاس مصر ومكيالها وميزانها ومقابلة ذلك بالاقيسة الفرنسية

(١١) رسالة فى مشابهة (كان) الناقصة بالفعل الفرنسى Avoir

(١٢) رسالة فى توحيد موازين العملة فى القطر المصرى باشر كتابتها والموت حال بينه وبين اتمامها

وتقلد محمود باشـا الفلكى رحمه الله مناصب ذات شأن لايتقلدها الا نخبة أهل الفضل . منها انه ناب عن الحكومة المصرية فى المجمع الجغرافى بباريس سنة ١٨٧٥ وفى البندقية سنة ١٨٨١ وتقلب فى مناصب الحكومة حتى بلغ مسند الوزارة فعهدت اليه نظارة الاشغال العمومية . ثم عهدت اليه نظارة المعارف العمومية فلم شعثها ونظمها ورتب كثيرا من أقسامها فزهت المعارف فى عهده وأضاءت البلاد بها . وتولى رئاسة الجمعية الجغرافية الخديوية مدة . وخلاصة القول انه كان هماما حازما محبا لوطنه قضى سنى حياته عاملا فى خدمته مجاهدا فى سبيل نشر المعارف بين أبنائه حتى توفاه الله فجأة سنة ١٣٠٣هـ وهو محاط بالكتب والاوراق آسفا على مؤلفات كان فى عزمه اتمامها فحال المنون بينه وبينها . فشقت وفاته على أهل الوطن المصرى فأبنه العلماء ورثاه الكتاب والشعراء بما دل على تقديرهم فضله حق قدره

رفاعة بك رافع الطهطاوى

١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٠١ - ١٨٧٣ م

هو السيد رفاعة بك بن بدوى بن على بن محمد ابن على بن رافع ويلحقون نسبهم بمحمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء

ولد فى طهطا بمديرية جرجا من صعيد مصر ، ويؤخذ مما كتبه عن نفسه فى رحلته التى سيأتى ذكرها أن أجداده كانوا من ذوى اليسار وأخنى الدهر عليهم وقعد بهم كما هو شأنه فى بنى الزمان . فلما ولد المترجم كانت عائلته فى عسر ، فسار به والده الى منشاة النيدة بالقرب من مدينة جرجا وأقام بين قوم كرام يقال لهم بيت أبى قطنة من أهل اليسار والمجد . فأقاما هناك مدة ثم نزحا الى قنا ولبثا بها حتى ترعرع الغلام فأخذ يقرأ القرآن ثم نقل الى فرشوط وأخيرا عاد الى طهطا . وكان قد حفظ القرآن وقرأ كثيرا من المتون المتداولة على أخواله وفيهم جماعة كبيرة من العلماء الافاضل كالشيخ عبدالصمد الانصارى ، والشيخ أبى الحسن الانصارى ، والشيخ فراج الانصارى ، وغيرهم

ثم توفى والده فجاء رفاعة الى القاهرة وانتظم فى سلك الطلبة بالجامع الازهر سنة ١٢٢٣ هـ وجاهد فى المطالعة والدرس جهادا حسنا حتى نال من العلم شيئا كثيرا ولم تمض عليه بضع سنين حتى صار من طبقة العلماء الاعلام فى الفقه واللغة والحديث وسائر علوم المعقول . وكان فى جملة من تلقى العلم عليهم من العلماء الشيخ حسن العطار المتوفى

سنة ١٢٥٠ هـ شيخ الجامع الازهر فأحب صاحب الترجمة وميزه عن سائر اقرانه التلامذة وخصه بالتقرب منه لما آنس فيه من الذكاء والاجتهاد فكان يتردد الى منزل الشيخ يأخذ عنه بعض العلوم أو يستشيره فى أمر أو ماشاكل ذلك

وقضى صـــاحب الترجمـــة بمجاورة الازهر زهاء ثمانى سنوات وكان كما قدمنا فى عسر ، وكانت والدته تنفق عليه مما تبيعه من بقايا حليها ومصاغها . فلما أتم دروسه تعين سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) اماما فى بعض آلايات الجنـــد براتب يساعده على القيام بأود حياته

وكان ذلك فى عصر محمد على باشـــا الذى كان يرســـل البعوث المصرية الى أوربا لتـــلقى العلوم الحديثـــة ليكونوا له أعوانا فى فتح المدارس وبث تلك العلوم فى أبنـــاء البلاد فأمر بتعيين صاحب الترجمة اماما لهم للوعظ والصلاة . فسارت الارسالية المشار اليها من مصر ســـنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م) . وهى أول ارســـالية مصرية الى فرنسا . فتاقت نفس المترجم الى علوم المغرب فعكف على درس اللغة الفرنسية من تلقاء نفسه رغبة منه فى تحصيل العلوم بها أو نقله منها الى العربية لعله يتخلص من مهنة الامامة . وكان معظم درسه اللغة بنفسه فلم يتقن التلفظ بها ولكنه تمكن من فهم معانيها فهما جيدا . واخذ يطالع العلوم الحديثة فأتقن التاريخ والجغرافيا وعلوما أخرى ، وكان ميالا الى التأليف والترجمة فترجم وهو فى باريس كتابا سماه « قلائد المفاخر فى غرائب عوائد الاوائل والاواخر » وغيره . فبلغ محمد على باشا ما اظهره السيد رفاعة من النباهة والرغبة فى العلم من تلقاء نفسه فسر به سرورا عظيما واستبشر بطالعه

وفى سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) عاد رحمه الله الى الديار المصرية بعد أن نال الشهادات الناطقة بدرجتـــه من العلم والفضل فولاه محمد على منصب الترجمة فى المدرسة الطبية



رفاعة رافع الطهطاوى

التى كان أنشأها سنة ١٢٤٢ هـ فى قرية أبى زعبل قرب القاهرة برئاسة كلوت بك الشهير . وكان متوليا رئاسة الترجمة بها قبله المرحوم يوحنا عنحورى من ابناء سوريا ، وله فيها خدمات جليلة وشهد لصاحب الترجمة بقصب السبق فولوه الترجمة وعمل على خدمة البلاد لاسيما وأن عارفى اللغات الاجنبية اذ ذاك كانوا يعدون على الاصابع . ومما يعد له فضلا جزيلا انه أول من باشر انشاء جريدة عربية فى سائر المشرق وهى « الوقائع المصرية » فانها أنشئت بمساعيه ومساعدته سنة ١٢٤٨ هـ ولا تزال الى الآن وهى الجريدة الرسمية المصرية

وفى سنة ١٢٤٩ هـ انتقل من مدرسة أبى زعبل الى مدرسة الطوبجية فى طره لترجمة الكتب الهندسية والفنون العسكرية. وفى سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) افتتح محمد على مدرسة للألسن الاجنبية وعهد بادارتها الى صاحب الترجمة وسميت عند فتحها مدرسة الترجمة فقام الشيخ رفاعة اذ ذاك حق القيام بادارة هذه المدرسة واختار لها التلاميذ من مدارس الارياف بسائر جهات القطر فبلغ عدد تلاميذها فى أول الامر خمسين تلميذا ثم زاد حتى صار ٢٥٠ تلميذا ، وكان فى ابى زعبل مدرسة تجهيزية للطب فنقلت الى جهات الازبكية فعهدت ادارتها اليه مع مدرسة الالسن ومدارس أخرى فرعية منها مدرسة للفقه والشريعة ، واخرى للمحاسبة ، واخرى للادارة والاحكام الافرنجية

وفى سنة ١٢٥٨ هـ تألف قلم الترجمة من أول فرقة خرجت من مدرسة الالسن وبعد سنة ونصف سنة من تأليفه نال رتبة قائمقام وكان قد نال مايتقدمها من الرتب تدريجا فى أوقات متتابعة وفى سنة ١٢٦٢ هـ نال رتبة أميرالاى فصار يدعى رفاعة بك بدلا من الشيخ رفاعة

وما زال رفاعة بك ناظرا لمدرسة الالسن حتى اغلقت على

عهد الامير عباس باشا الاول فأمر بارساله الى السودان لنظارة مدرسة الخرطوم وما زال هناك حتى توفى عباس باشا المشار اليه سنة ١٢٧٠ هـ ، فعاد الى مصر ومثل بين يدى سعيد باشا فعهد اليه سنة ١٢٨١ وكالة مدرسة الحربية بجهة الصليبة تحت رئاسة سليمان باشا الفرنساوى وبعد قليل أنشئت مدرسة الحربية بالقلعة فأحيلت اليه نظارتها مع نظارة قلم الترجمة ومدرسة المحاسبة والهندسة الملكية والتفتيش والمعمارجية وعند ذلك نال الرتبة الممتازة

وفى سنة ١٢٧٧ هـ ألغيت كل هذه المدارس فبقى رفاعة بك بغير منصب الى سنة ١٢٨٠ هـ فأعيد الى نظارة قلم الترجمة وتعين عضوا فى قومسيون المدارس وتولى ادارة جريدة « روضة المدارس » مع مثابرته على التأليف . وما زال قائما بهذه المهام حتى توفاه الله سنة ١٢٩٠ هـ بداء النزلة الثانية وله من العمر ٧٥ سنة . وقد ملأ الديار المصرية من المترجمين والاساتذة والمهندسين وغيرهم ممن استفادوا من مؤلفاته وتعاليمه . وقد اطلعنا على كتاب خطى اسمه « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » تأليف صالح بك مجدى عدد فيه مناقب صاحب الترجمة وعنه أخذنا معظم ماذكرناه هنا. وقد ذكر فيه أيضا عددا كبيرا من الذين أخذوا العلم عنه ونبغوا واشتهروا وذكر مناصبهم ووظائفهم وأعمالهم مما لامحل لذكره هنا

صفاته

وكان رحمه الله قصير القامة واسع الجبين متناسب الاعضاء أسمر اللون حازما مقداما على ذكاء وحدة . وهذا مانهض به من حضيض العسر الى مراتب المجد والفخر حتى أصبح ممن يشار اليهم بالبنان ويقتدى بأعمالهم بنو الانسان

وكان فى أوائل حياته الى أن عاد من الديار الافرنجية

يلبس اللباس العربى الخاص من الجبة والعمامة والقفطان كما ترى رسمه فى صدر هذه المقالة ثم بدله باللباس الافرنجى المشهور

مؤلفاته

نختم ترجمة حاله بذكرمؤلفاته الواحد بعد الآخر مع وصفها بقدر الامكان :

(١) خلاصة الابريز والديوان النفيس . وهو رحلتـه الى فرنسا ذكر فيه ما شاهده من العادات والاخلاق والازياء وآثار التمدن الحديث وكل مايتعلق بذلك وقد حازت من القبول لدى محمد على باشا حتى أمر ان تتلى فى قصوره ثم امر بطبعها وتفريقها فى الدواوين وبين الوجهاء والاعيان

(٢) التعريبات الشافية لمريد الجغرافية . وهو مجلد ضخم ترجمه من الفرنسية الىالعربية لتدريس الجغرافية فىالمدارس المصرية . وقد طبع غير مرة فى مجلد كبير

(٣) جغرافية ملطبرون . وهوكتاب مؤلف منعدة مجلدات كبيرة يبحث فى الجغرافية بحثا تاريخيـا مطولا ترجم منه المؤلف أربعة مجلدات كبيرة طبعت فى مطبعة بولاق . ويظهر منمطالعتها انه ترجمها علىعجل والواقع يؤيد ذلك لأننا علمنا انه ترجم مجلدا منها فى ستين يوما سنة ١٢٦٥ هـ

(٤) كتاب قلائد المفاخر فى غريب عوائد الاوائل والاواخر . ترجمه فى باريس وقد تقدم ذكره

(٥) كتاب المرشد الامين فى تربيـة البنات والبنين . وهو مجلد واحد الفه للتعليم فى مدرسة البنات

(٦) كتاب التحفة المكتبية فى النحو . الفه لتعليم قواعد النحو فى المدارس الابتدائية مطبوع طبع حجر

(٧) مواقع الافلاك فى اخبار تليماك . وهو تعريب وقائع تليماك الفرنسية ترجمه يوم كان فى الخرطوم مع بعض التصرف

(٨) مباهج الالباب المصرية فى مناهج الالباب العصرية . وهو بحث عن آداب العصر وسياسته وصنائعه وعلومه وفنونه ومطبوع بمطبعة بولاق الاميرية

(٩) مختصر معاهد التنصيص . وهو اختصار المعاهد مع بعض الزيادات الى الاصل ولم يطبع

(١٠) المذاهب الاربعة ، وهو بحث فى المذاهب الاربعة الفه أثناء رئاسته لمدرسة الالسن

(١١) شرح لامية العرب

(١٢) القانون المدنى الافرنجى . مطبوع

(١٣) كتاب توفيق الجليل وتوثيق بنى اسماعيل وهوتاريخ لمصر طبع ونشر

(١٤) كتاب هندسة ساسير . ترجمه من الفرنسية الى العربية وقد طبع بمطبعة بولاق

(١٥) رسالة فى الطب (لم تطبع)

(١٦) جمال الاجرومية وهو منظومة سهلة فى الاجرومية (مطبوعة)

(١٧) نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز . وهو آخر مؤلفاته طبع فى روضة المدارس بمطبعة المدارس الملكية

وله رحمه الله غير ماتقدم ذكره من المآثر العلمية بين منظومات ورسائل ومقالات شىء كثير لم يطبع . وقد وقفنا على بعضه . وأما خدماته فى التعليم والتهذيب فغنية عن البيان . ويقال بالاجمال أن رفاعة بك رافع خدم خدمة كبرى فى نشر العلوم الحديثة بنقلها الى اللغة العربية وتسهيل تناول اللغات الاجنبية بمدرسة الالسن وقلم الترجمة وغيرها

عبد الله باشا فكرى

١٢٥٠ - ١٣٠٧ هـ الموافق ١٨٣٤ -١٨٨٩ م

هو عبد الله باشا فكرى بن محمد افندى بن الشيخ عبدالله ابن الشيخ محمد وكان الشيخ عبد الله من العلماء المدرسين فى جامع الازهر وكان مالكى المذهب أخذ العلم عن الشيخ عبد العليم الفيومى وغيره . وما زال الشيخ عبد الله مقيما فى مصر حتى قدمت الجنود الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر وأساءوا معاملة العلماء فرحل الى منية خصيب (المنيا) فأقام بها مدة ثم عاد الى القاهرة وعكف على الاشتغال فى العلم حتى توفى فنشأ ابنه محمد افندى بليغ على مثال أبيه جادا فى طلب العلم

وكانت مصر قد انتقلت الى حكم العائلة المحمدية العلوية وانشئت مدارس العلوم الرياضية والمدرسة الحربية فدخلها وخاض عباب علومها حتى تمكن منها فانتظم فى خدمة الجيش فترقى الى رتبة صاغقول اغاسى وحضر عدة مواقع حربية اهمها حرب المورة ، فعقد فى المورة على والدة المترجم وعاد بها الى الحجاز فوضعت بمكة المشرفة غلاما سماه باسم ابيه عبد الله وهو عبدالله باشا فكرى صاحب الترجمة

ومن غريب الاتفاق ان سنة ولادته وافقت مجموع جمل الآية « قال انى عبد الله آتانى الكتاب » وذلك سنة ١٢٥٠ هـ وقد وافق ذلك نبوغه بالعلم والفضل واشتهاره بسائر فنون الكتابة نثرا ونظما وقد اعجب هو ايضا بهذا الاتفاق فلما شب وتعلم نقش هذه الآية على خاتم له كان يختم به كتبه . ثم عاد محمد



عبد الله باشا فكرى

افندى بليغ بولده الى القاهرة ومازال فى خدمة الحكومة حتى نال منصب باشمهندس الشرقية ثم مفتش هندسة الجيزة والبحيرة وتوفى سنة ١٢٦١

اما صاحب الترجمة فكان عند وفاة والده لم يتجاوز الحادية عشرة فنشأ فى حجر بعض اقارب أبيه وكان قد بدأ بتعلم القرآن فاتمه وجوده ثم اشتغل فى طلب العلم فى الجامع الازهر وتلقى العلوم المتداولة فيه كاللغة والفقه والحديث والتفسير والعقائد والمنطق على الشيخ ابراهيم السقا والشيخ محمد عليش والشيخ حسن البلتانى وغيرهم وكان مع ذلك يشتغل فى تعلم اللغة التركية حتى اتقنها وتعين فى القلم التركى فى الديوان الكتخدائى (١٢٦٧ هـ) وهو لا يزال مكبا على طلب العلم فى الازهر يغتنم ساعات الفراغ قبل ذهابه الى الديوان وبعد رجوعه منه ثم انتقل من الديوان المذكور الى ديوان المحافظة ثم الى الداخلية بصفة مترجم ثم الحق بالمعية «السنية» على عهد الامير محمد سعيد باشا وبقى فيها الى ولاية الخديو اسماعيل باشا سنة ١٢٧٩ هـ فابقاه فى معيته فسافر معه الى الاستانة عندما أمها لاتمام الرسوم فى تقليد الولاية وأداء الشكر للسلطان وما زال فى خدمته يرافقه فى أكثر رحلاته فسافر الى الاستانة مرارا وهو يقوم بمهمة الكتابة تارة مع الخديو اسماعيل وطورا مع الحرم الخديو وبمهمات اخرى فنال الرتبة الثانية مع لقب بك سنة ١٢٨٢ هـ

وفى سنة ١٢٨٤ قلده الخديو اسماعيل ملاحظة الدروس الشرقية وهى العربية والتركية والفارسية بمعية انجاله وهم محمد توفيق باشا والخديو والبرنس حسن باشا والبرنس حسين باشا عم الخديو وغيرهم من امراء العائلة الخديوية

فقام يباشر امرهم فى التعليم والتعلم والتدرج فى الفضل والتقدم فكان احيانا يباشر التعليم بنفسه واحيانا يقوم بمراقبة غيره من المعلمين وملاحظة القاء الدروس وتقويم

طريقة التعليم . . فلم يزل على ذلك الى أن ترقى الخديو الى رتبة الوزارة والمشيرية وتوجه الى دار الخلافة العظمى لأداء رسوم الشكر على ذلك للسلطان فصحبه المترجم الى دار السعادة وبقى معه الى ان عاد

وفى سنة ١٢٨٦ نقل الى ديوان المالية فاقام أياما بغير عمل ثم عهد اليه النظر فى أمر الكتب التى كانت فى ديوان المحافظة على ذمة الحكومة وابداء رأيه فيها فلبث مدة يتردد الى ذلك الديوان وينظر فى الكتب . ثم رفع تقريرا مفصلا ضمنه بيانها وما رآه فى حالها وذكر فيه ان ابقاءها على حالتها لا يحسن ولا يحفظها ولا يمكن من الانتفاع بها وقال بلزوم جعلها على هيئة ينتفع بها الناس اما بانشاء محل خاص تنقل اليه ويجعل فيه ما فيه من الكفاءة لها من الخزائن وتوضع به على الوضع الموافق واما باحالتها على المدارس لتودع فى المكتبة الجارى انشاؤها بمساعى على باشا مبارك ناظرها اذ ذاك على سعة لا تضيق بهذه الكتب وأمثالها وأوضح ان الوجه الثانى أولى وقد حصل ذلك على ما قرره فاستنقذت تلك الكتب النفيسة من زوايا الخمول والاهمال ورتبت ترتيبا حسنا فى المكتبة المذكورة وهى الآن فى دار الكتب المصرية



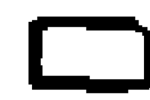
وكان المجلس الخصوصى اذ ذاك (وقد صار الآن مجلس الوزراء) مشتغلا فى جمع اللوائح والقوانين وتنقيحها وتعديلها فعهد الى صاحب الترجمة بالمساعدة فى ذلك فاستلم القوانين واللوائح التركية واخذ فى العمل الى سنة ١٢٨٧ هـ

وفى سنة ١٢٨٨ هـ تعين وكيلا لديوان المكاتب الاهلية والرئيس اذ ذاك على باشا مبارك . وفى سنة ١٢٩٤ هـ نال صاحب الترجمة رتبة المتمايز وبعد سنتين تعين وكيلا لنظارة المعارف العمومية ونال رتبة ميرميران الرفيعة ثم عهد اليه منصب الكتابة الاولى

بمنصب النواب مع المنصب السابق . وفى سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) تعين ناظرا للمعارف العمومية وفى رجب من تلك السنة أقيل من منصبه مع سائر زملائه النظار لاحوال اقتضتها الثورة العسكرية اذ ذاك وأمرها مشهور

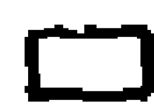
ثم كانت الثورة العرابية المشار اليها فلما انقضت واخذت الحكومة فى محاكمة زعمائها والقائمين بها كان صاحب الترجمة من جملة المقبوض عليهم وبعد استجوابه لدى لجنة التحقيق ظهرت براءته فأطلق سراحه ولكنهم قطعوا عنه معاشه ، ولم يعيدوه اليه الا بعد جهد جهيد

وفى سنة ١٣٠٢ هـ توجه الى الحجاز لاداء فريضة الحج فلقى من علماء مكة والمدينة وأدبائهما ما يليق بمقامه من الاكرام والاعظام وكتب فى ذلك كتابا سماه الرحلة الملكية . وفى السنة التالية شخص لزيارة بيت المقدس والخليل ومعه نجله أمين باشا فكرى فلقى من العلماء والعظماء هناك ما يجدر بفضله ثم سارا الى مدينة بيروت الزاهرة لتبديل الهواء واقاما فيها شهرا كان مقامهما فيها منتدى الفضلاء ومشرع الادباء والعلماء ثم ارتحل الى دمشق فلاقى فيها ما لاقاه فى بيروت من الاحتفاء وحسن الوفادة ثم عرج الى بعلبك فزار آثارها وسار منها بطريق لبنان الى بيروت فأقام فيها شهرين وعاد الى مصر



وفى سنة ١٣٠٦ انتدبته الحكومة المصرية لرئاسة الوفد العلمى المصرى فى المؤتمر الذى انعقد فى مدينة استوكهلم عاصمة اسوج ونروج وصحبه فى هذه الرحلة ايضا نجله المتقدم ذكره عضوا فى هذا الوفد . وقبل سفره من الاسكندرية احسن اليه الجناب الخديو بالنيشان المجيدى من الدرجة الثانية وقد مر فى وفادته المذكورة على تريستا من أعمال النمسا وفينيسيا (البندقية) وميلانو من أعمال ايطاليا ولوسرن

من أعمال سويسره وباريس فأقام بها أكثر من عشرين يوما تفرج فيها بمشاهدة المدينة وضواحيها وكان وقت المعرض فشاهد ما فيه من عجائب الصنائع وغرائب الفنون ثم برحها الى لندره ومنها الى نوتردام ولاهاى من اعمال هولاندا وليدن من أعمالها ايضا وزار مكتبتها الشهيرة ورأى مطبعتها المعروفة بالمطبوعات الشرقية ثم توجه منها الى كوبنهاجن عاصمة الدنيمارك ومنها الى استوكهلم محل مأموريته فنال من العلماء المجتمعين لهذا المؤتمر باستوكهلم وحرستيانيا مزيد الرعاية وأهداه اوسكار الثاني ملك اسوج ونروج عند اتمام هذه المهمة نيشان (وازه) من الدرجة الاولى ومر فى العودة من مأموريته على برلين عاصمة بلاد المانيا وفينا عاصمة النمسا فلقى بها ما لقيه فى العواصم الاخرى من الاحتفاء وقد اخذ بعد عودته الى مصر يجمع المواد ويعد المعدات لتدوين رحلته التى وعد بها عن المهمة وعما رآه فى العواصم التى مر بها ولكن منعه من استمرار السير فى ذلك مرض السكتة الذى اعتراه فى شهر رجب سنة ١٣٠٧ فابقى اتمامها الى ما بعد تمام صحته ولكن عاوده بعد ظهر الخميس فى ٧ ذى الحجة وهو عائد من «ابعاديته» بتلحوين وتزايد عليه حتى وافاه الاجل المحتوم فى الساعة الثانية عربية من صباح يوم الاحد عاشر الشهر وهو يوم النحر وشيع محمولا على هامات الوقار والتبجيل تودعه المحاجر والقلوب . ونظرا لما كان له من المقام الرفيع لدى الخديو محمد توفيق تعطف بتعزية أهله وأولاده برسالة برقية



وكان رحمه الله شاعرا مطبوعا وكاتبا فصيحا وقد نبغ بين الكتبة والشعراء ومصر قليلة الوسائل التعليمية وكان يذهب فى انشائه مذهب القرون الوسطى من ابناء هذا اللسان مع ميل الى التسجيع

أما رحلته الى المؤتمر فقد عنى نجله المتقدم ذكره بنشرها

فى كتاب سماه « ارشاد الالبا الى محاسن اوربا » فى مجلد ضخم طبع بمصر سنة ١٨٩٢ م وهو جدير بالمطالعة حقيق بالاعتبار لما حواه من اوصاف المدن الاوربية وعادات أهلها واخلاقهم وفيه شيء كثير من نظم المؤلف ونثره مما لم ينشر فى سواه وابحاث علمية ولغوية وادبية

ومن مؤلفاته ايضا المقامة الفكرية فى المملكة الباطنية طبعت فى مصر غير مرة ورسالة مطولة الى سلطان باشا يحثه فيها على نشر العلوم فى انحاء الصعيد ونبذة فى محاسن آثار محمد على باشا والفوائد الفكرية للمكاتب المصرية وله غير ذلك من المقالات والخطب وله قصائده الرنانة



علی باشا مبارك

١٢٣٩ – ١٣١١ هـ الموافق ١٨٢٣ – ١٨٩٣ م

ولد فی قریة برنبال الجـدیدة فی مدیریة الدقهلیة سـنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ م) واسم والده الشیخ مبارك بن مبارك ابن ابراهیم الروجی . وابتدأ فی تعلم القراءة والكتابة علی رجل من أهل القریة أعمی ثم نزحت العائلة الی ناحیة الحمادیین فلم یطب لهم المقام فیها فارتحلوا الی عرب السـماعنة بالشرقیة ولم یكن عندهم فقهاء فانزلوا والد صاحب الترجمـة منزل الاكرام ، وصار مرجعهم الیه فی الامور الدینیة لانه كان صالحا تقیا متفقها . فاعتنی بتربیة ولده بنفسه ثم عهد بتعلیمه الی معلم اسمه الشیخ ابو خضر فی مكان قرب برنبال لا یذهب الی والده الا كل یوم جمعة فختم القرآن فی سنتین ، ولكنه ترك معلمه لكثرة ضربه له وجعل یقرأ علی والده . علی ان كثرة اشغال الشیخ مبارك حملت صاحب الترجمة علی اللهو واللعب حتی نسی ما كان قد تعلمه . فاشفق والده علیه لئلا یعیش بغیر تعلیم فأراد اجباره علی العود الی معلمه فأبی خوف ضربه فتوسط له أشقاؤه لدی والده ، فسأله عما یریدتعلیمه ففضل العدول عن الفقه ورغب فی الكتابة لما كان یری من حسن زی الكتاب وهیبتهم . وكان لوالده صـدیق یتعـاطی الكتابة فی القسم بناحیة الاخیوة فعهد الیه فی تعلیمه ، فأنس علی به وألفه حتی اختلط بعائلته فرأی حالته الداخلیة غیر ما كان یراه منه فی الظاهر ، واتفق انه سأل مرة كم یجمع الواحـد والواحد فاجابه « اثنین » فضربه بمقلاة البن فشج راسـه

وكان ذلك فى محضر من الناس فشق ذلك على على فغادره ، وسار الى والده يشكوه اليه فنقم عليه والده ففر من البيت الى المطرية جهة المنزلة ملتجئا الى خالة له هناك

واتفق انتشار الوباء (الكوليرا) اذ ذاك فأصيب به فى الطريق فحمله بعضهم الى بيته فى قرية صان الحجر وعالجـه حتى شفى ، وادعى انه يتيم الاب والام ، ولكن والده وأخاه كانا ساعيين فى التفتيش عنه . فلما رآهمـا فى تلك القرية طلب الفرار ، ولكنهما امسكاه بعـد ذلك وحملاه على العـود الى التعليم ، فسلمه والده الى كاتب آخر فلم يلبث معه الا قليلا ثم عاد الى القراءة على والده فجعله مساعدا لاحد الكتاب فى القسم ولم يكن يدفع اليه الراتب المعين له وقدره خمسون قرشا . فاتفق انه أرسل يوما لقبض حاصل بعض القـرى فقبضه وابقى معه من المقبوض استحقاقه من الراتب وارسل البـاقى فغضب عليـه الكاتب حتى اذا اتفق جمـع انفـار العسكرية وشى به الى المنوط به جمعهم فامسكوه والقوه فى السجن فتوسط له والده امام عزيز مصر اذا ذاك محمد على باشا فاطلقوا سراحه

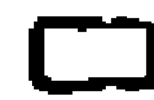
ثم سعى له بعضهم فى ان يكون كاتبـا لدى مأمور زراعة القطن فى ابى كبير فحضر بين يدى المأمور واسمه عنبر افندى فاذا هو حبشى اللون سمح الوجـه ورأى المشـايخ والحكام وقوفا بين يديه فتأخر حتى انصرفوا . ثم دخل عليه وقبل يده فخاطبه بكلام رقيق عربى فصيح والتمس خدمته عنده على ان يدفع اليه ٧٥ قرشا شهريا مع كفاءته من العيش ، فسر على لذلك ولكنه عجب لحال هذا المأمور المخالفة لســواد وجهه لاعتقاده ان الحكام لا يكونون الا من الاتراك . وما زال يتحرى الاسباب التى جعلت ذلك العبد حاكما حتى علم اخيرا أنه معلم فى مدرسة قصر العينى وان تلك المدرسة تعلم الخط والحساب واللغة التركية . فســأل اذا كان يجـوز للفلاحين الانتظام فيها فقيل له انما يدخلها من ساعدته الوســائط .



على مبارك

فاتقدت فى قلبه نار الغيرة ومال بكليته الى الدخول فى تلك المدرسة على بعدها عن مقره وقلة وسائطه فاستأذن رئيسه يوما مدعيا الذهاب الى بيت ابيه فاذن له فغادر البلدة والتقى فى قرية بنى عياض بطريقه بتلامذة مدرسة الخانقاه فاراد ان يدخلها لعلمه ان تلامذة قصر العينى انما ينتخبونهم من هذه المدرسة . فاجبره والده ان لا يفعل واختطفه قهرا وحمله الى بيته وعهد اليه رعاية الماشية ، ولكن ذلك لم يحـوله عن عزمه ففر ذات ليلة حتى جاء المدرسة ودخلها ولم يخرج منها ليلا ولا نهارا خوفا من ان يلقاه والده فيختطفه ويرجع به الى البيت . ولم يكن والده يكره تعليمه ، ولكنه يود بقاءه قريبا منه . ثم جاء بعد ذلك ناظر تلك المدرسة لانتخاب انجب التلامذة وادخالهم فى مدرسة قصر العينى ولم تكن فيها دراسة الطب بعد . فكان على رأس المنتخبين لذكائه وفطنته فدخل تلك المدرسة سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) وسنه ١٢ سنة فقط

وكانت معاملة التلامذة هناك سيئة ومهينة جدا والطعام تافها قبيحا فأوقع صاحب الترجمة فى مرض الجرب واشتد عليه فعلم والده بذلك فاراد استخراجه من المدرسة بالحيلة لانهم لم يؤذنوا له باخراجه فلم يرض على بل فضل البقاء فى المدرسة رغبة فى اتمام علمه فقبله والده وودعه وهما باكيان



وفى السنة التالية نقه من مرضه وعاد الى دروسه ولكن محمد على باشا امر بان تجعل مدرسة قصر العينى لتعليم صناعة الطب فنقل تلامذة العلم منها الى مدرسة ابى زعبل . وكانت العلوم الرياضية لديه الى ذلك الحين كالطلاسم لا يفهم لها معنى لتعقدها وسوء طرق تدريسها فاعتنى ناظر المدرسة ابراهيم بك رافت بالقاء تلك الدروس بنفسه يشرحها للتلامذة

بأبسط عبارة ـ قال صاحب الترجمة : « وكانت طريقته هذه باب الفتوح على »

واخذ على من ذلك الحين يذوق لذة العلم على أنواعه ثم انتخب فيمن انتخب لمدرسة المهندسخانة فدرس فيها خمس سنوات

وفى سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤ م) عزم محمد على باشا على ارسال انجاله الى فرنسا للتعلم فانتخب على فى جملة تلك البعثة فأقاموا فى باريس سنتين ثم أرسل بعضهم وفى جملتهم هو الى متس وقد تقلد كل منهم رتبة الملازم فأقاموا فى هذه ايضا سنتين درسوا فيها فن الحرب وما يتعلق به

ثم لما توفى محمد على باشا وتولى عباس باشا استقدم البعثة الى مصر وانعم على صاحب الترجمة ورفاقه برتبة يوزباشى والحق هو بالجيش المصرى وقائده اذ ذاك سليمان باشا الفرنساوى . ثم انتدبه الامير عباس باشا الاول ليكون فى لجنة الامتحان التى عينها لامتحان مهندسى الريف فقام بتلك المهمة حق القيام

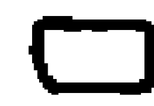
وفى سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) أوعز اليه عباس باشا ان ينظم أسلوبا للمدارس مع الاقتصاد فى النفقة فنظمه وقدمه اليه فاعجبه وانعم عليه بمقابل ذلك برتبة اميرالاى . ولكنه طلب اليه أن يتولى نظارة تلك المدارس بنفسه فاهتم بذلك اشد الاهتمام ولم يكتف بالادارة ولكنه كان يؤلف بعض الكتب اللازمة للتدريس واتى الى المدرسة بمطبعة حجر لطبع الكتب وكان يراقب سير المدارس جيدا من حيث النظافة والترتيب وطرق التعليم ، والف فى العمارة كتابا للتعليم (لم يطبع)

وما زالت الحال كذلك حتى تولى الامير محمد سعيد باشا فوشى اليه به ففصله من نظارة المدارس وبعث به فى الحملة التى سارت لمحاربة روسيا مع الدولة العلية سنة ١٢٧٠ هـ فسافر وقاسى أهوالا كثيرة ، وعاد سالما وعند عودته كان فى

جملة من اخلى سبيلهم من العسكرية فعاد الى مسكن حقير اوى اليه لا يملك شيئا ولم يلتفت اليه احد ممن كانوا له اصدقاء وقت الرخاء . مكث سنين فى هذه الحال حتى انف المناصب والرتب والف العزلة والسكنى بعيدا عن الناس وعزم على العود الى بلدته . وفيما هو فى ذلك صدر الامر بفرز ضباط الجهادية لانتقاء الصالحين منهم للخدمة فكان هو من المختارين فتقلد منصب معاون فى نظارة الجهادية ثم تعين وكيلا لمجلس التجار ثم مفتشا لنصف الوجه القبلى . ثم اقيل من هذه المناصب وتبرع بتعليم الضباط والصف ضباط القراءة والكتابة والهندسة . وفى أثناء ذلك الف كتابا فى الهندسة سماه « تقريب الهندسة » وكتابا آخر فى الاستحكامات وآخر سماه تذكرة المهندسين . ثم رفت فضاقت ذات يده حتى عزم على الاشتغال بالتجارة فاشترى جانبا من الكتب كانت الحكومة عرضتها للمبيع بأثمان بخسة فاشتراها وباعها فربح منها ربحا حسنا ، ولكنه ما زال قانطا مما كانت تطمح اليه انظاره من المناصب بسبب تغير سعيد باشا عليه بما وشي به اليه كما قدمنا . فلما توفى سعيد باشا سنة ١٢٧٩ (١٨٦٢ م) وخلفه الخديو اسماعيل باشا تجددت آماله والحقه اسماعيل باشا بمعيته ثم عينه فى نظارة القناطر الخيرية وكانت لا تزال فى حاجة الى المهندسين فأجرى فيها عدة اصلاحات . وفى سنة ١٨٦٥ م بعث به للنيابة عن الحكومة المصرية فى المجلس الذى تألف لتقدير الاراضى التى هى حق شركة خليج السويس على مقتضى القرار المحكوم به من امبراطور فرنسا فقام بتلك المأمورية حق القيام فاحسن اليه برتبة المتمايز

وفى سنة ١٨٦٧ هـ عهدت اليه وكالة ديوان المدارس . ثم انتدبه الخديو للسفر الى باريس فى مهمة مالية فاستفاد من سفره هذا فوائد جمة واجتلى أهم المتاحف والآثار والمدارس. وبعد عودته بقليل انعم عليه برتبة ميرميران واحيلت الى

عهدته ادارة السكك الحديدية المصرية وادارة ديوان المدارس وديوان الاشغال العمومية ونظارة الاوقاف مع بقائه على نظارة القناطر الخيرية . ولا يخفى ما يقتضى للقيام بكل هذه الاعمال من الهمة والنشاط والقدرة فكان يعمل ليله ونهاره حتى لا يفوته شيء . وفى اثناء ذلك سعى فى نقل ديوان المدارس من العباسية الى درب الجماميز فى القاهرة حيث لا تزال الى اليوم وأسس دار الكتب المصرية وانشأ كثيرا من المدارس الاميرية المنظمة فى المدن الكبيرة بالوجهين القبلى والبحرى . وأنشأ مدرسة دار العلوم يتخرج فيها معلمو اللغة العربية ويدرسون طرق التعليم والعلوم الحديثة . كما أنشأ معرضا للآلات الطبيعية وغيرها من أدوات العلوم الرياضية لكى يتمرن عليها التلامذة فتكون معارفهم مبنية على المشاهدة والاختبار . ووجه التفاته الى الاوقاف فأصلح كثيرا فيها ودبر أملاكها ورتب حساباتها



واما اعماله مما يتعلق بديوان الاشغال فكثيرة منها تنظيم شوارع القاهرة وتوسيعها كما هى عليه الآن . ومن الشوارع التى فتحت على يده شارع محمد على (القلعة الآن) وميدانه وشوارع الازبكية وميدانها ومايحيط بعابدين من الشوارع ونحوها وباب اللوق وكانت جهات الفجالة والاسماعيلية تلالا وآكاما قذرة فانعم بها الخديو اسماعيل على الناس فمهدوها وبنوا فيها القصور والحدائق حتى صارت كما نراها الآن . وفى عهده بنى كبرى قصر النيل الباذخ المتين وتنظمت الجزيرة وانشئت فيها الشوارع المحفوفة بالاشجار . وجلبت المياه الى القاهرة بواسطة الشركة وانشىء كثير من الجسور والترع فى جهات القطر كترعة الابراهيمية والاسماعيلية . وفى عهد توليه الاشغال ايضا تم فتح قنال السويس رسميا ودعى الملوك لحضور الاحتفال بذلك فكانت الاعمال اللازمة للقيام بمعدات

ذلك الاحتفال منوطة به، فأهدى اليه بعد الاحتفال نشان غران كوردون من النمسا ونيشان كوماندور من فرنسا والغران كوردون من بروسيا

وبقيت عهدة تلك الادارة بيده الى سنة ١٨٧١ م ثم فصل عنها لخلاف حدث بينه وبين ناظر المالية اذ ذاك وتعين ناظرا للمكاتب الاهلية . ثم استقل ديوان الاشغال فتعين وكيلا له ثم تعين فى مناصب أخرى حتى سنة ١٨٧٧ م عندما ترتب مجلس النظار وصارت ادارة أعمال الحكومة منوطة به فتألف المجلس تحت رئاسة نوبار باشا وتعين صاحب الترجمة ناظرا على المعارف والاوقاف فبذل جهده فى توسيع نطاق المعارف فانشأ مدارس كثيرة فى الوجه البحرى . حتى كانت حادثة تذمر الجهادية ثم سقوط الوزارة النوبارية وتألفت وزارة أخرى لم تدم طويلا لخلع الخديو اسماعيل وتولى الخديو السابق وفى مدته هذه ايضا أجرى اصلاحات كثيرة وخصوصا فى الرى

ولما انتهت الثورة العرابية بالاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢م عاد الى اهتمامه بالرى ومايتعلق به من بناء الجسور والحيضان وحفر الترع وتوزيع الماء . وفى أواخر تلك السنة سقطت الوزارة الرياضية ثم عاد الى نظارة المعارف فأجرى فيها هذه المرة ايضا اصلاحات جمة ثم اعتزل الاعمال وما زال حتى توفاه الله

ولصاحب الترجمة مؤلفات مفيدة واشهر ما بقى منها كتاب « الخطط التوفيقية » طبع بمصر فى عشرين جزءا وهو تكملة لخطط المقريزى ومؤلف على مثالها . ومنها كتاب علم الدين وهو عبارة عن رواية ادبية عمرانية فى عدة أجزاء

رجال أدب وفن

١ ـ عبد الله نديم
٢ ـ ناصيف اليازجي
٣ ـ ابراهيم المويلحي
٤ ـ بطرس البستاني
٥ ـ احمد فارس الشدياق
٦ ـ عبده الحمولي

السيد عبد الله نديم

١٢٥٩ – ١٣١٤ هـ الموافق ١٨٤٣ – ١٨٩٦ م

كتب ترجمة حياته صديقه الوفى احمد افنـــدى سمير فقـــال ما ملخصه : هو عبد الله بن مصـــباح بن ابراهيم . وينتهى نسبه الى أدريس الاكبر من اسباط الحسن بن على . ولد بالاسكندرية سنة ١٢٥٩ هـ « ١٨٤٣ م » فحفظ القرآن الـكريم قبل أن يبلغ التاسعة ، وكان ابوه وسطا فى اليسار ، فلما رأى ذكاءه ونجابته ادخله مدرسة جامع الشيخ ابراهيم باشا ، فقرأ على أكابر المشايخ ، فأتقن فقه الشافعى والاصول والمنطق وعلوم الادب اللسانية ، وهو فى سن المراهقة ، فأخذ منذ ذلك الحين يقول الشعر الرقيق والنثر المسجوع المحكم . فما لبث أن سارت الامثال ببدائع آدابه ، وتسابق بلغـــاء الـكتاب والشعراء الى مطارحته . وكانت الـكتابة الى ذلك العهد مقصورة على السجع ، فتوخى المترجم له فيها أساليب جديدة فى الانشاء ، فاق فيها المتقدمين ، وأعجز المتأخرين . تشهد بذلك رسائله الادبية ، ومؤلفاته التى تبلغ مائة مؤلف ، فى فنون مختلفة ، فقد أكثرها سرقة أو اغتصابا أو حرقا أو اغراقا فى مياه النيل ، كما سيأتى تفصيله

وكان رحمه الله منذ ترعرع جريئا مقـــداما ، يميل الى ركوب الاخطار ومعاناة الشدائد ، سعيا وراء المعالى . وقد رأى ان ذلك لاينال عفوا . فكان أول مابدأ به من تلك المطالب المعجزة انه نظر فى الوجود نظرة باحث مدقق ، فتبين له أن الاشتغال بالعلم ربما عاقه عن بلوغ مقصده ، فتعلم صـــناعة



عبد الله نديم

التلغراف واتقنها فى اقل مما يتصور من الزمن ، كأن الكهرباء لم توجد الا لتزاحم خاطره فى السرعة ، فلم يمض عليه بضعة أسابيع حتى استخدم تلغرافيا فى مكاتب مختلفة ، أهمها مكتب تلغراف القصر العالى الخاص ، على عهد الخديو اسماعيل

ولم تكن وفرة الاعمال عائقة له عن التحصيل ، فقد كان يغتنم نوبة فراغه من العمل ، فيتردد الى الجامع الازهر ، يطالع مع بعض رفاق شبيبته الدروس التى كانوا يشتغلون بها . وأخص هؤلاء الرفاق العلامة الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية بنظارة المعارف حينذاك

ثم طرأ ما أوجب انفصاله عن الخدمة ، فاتصل بكثير من المقربين والعظماء ، فكانت له معهم مجالس مشهودة حضرها افاضل الشعراء والمنشئين وناظروه وطارحوه نظما ونثرا فظهر عليهم جميعا

ثم قصد المنصورة ترويحا للنفس ورأى أن التجارة خير رياضة له فأنشأ هنالك متجرا فراجت سوق بضاعته رواج آدابه ولكن كرمه تغلب على راس المال والربح ففقدهما جميعا وكان بيته ومتجره كعبة يحج اليها رجال الأدب وكانوا يتحدثون بمعجزة رسائله ومحرراته نظما ونثرا

نشأته السياسية

ثم عاد الى الاسكندرية فى أوائل سنة ١٨٧٩ وهنالك أخذت شمس حياته السياسية تبدو فكان أول سعيه فى هذا السبيل ان اجتمع بصديقيه المخلصين محمد افندى امين باشكاتب محكمة اسيوط الاهلية ومحمود واصف افندى احد جامعى كتاب سلافة النديم ومحرر جريدة العدل وكانا وقتئذ من مؤسسى جمعية مصر الفتاة . فكان الاول نائب رئيسها والثانى كاتم اسرارها فتعرف ليلة اجتماعه بهما بالمأسوف عليهما أديب افندى اسحق وسليم افندى النقاش صاحبى

جريدتي مصر والتجارة وتعرف بكثير من اعضاء هذه الجمعية وشرع فى بث أفكاره بما كان ينشره فى تينك الجريدتين ثم رأى أن جمعية مصر الفتاة سرية يخشى عليها من الحكومة فاقنع صديقيه المشار اليهما بالانفصال عنها فانفصلا وتبعهما كثير من اعضائها ثم استشارهما فى انشاء جمعية علنية تسعى فى ما يعود على الوطن واهله بالمنفعة الحقيقية فاستصوبا رأيه. وشرع منذ ذلك الحين فى تأليف قلوب أهل الثغر علما بأن المرء قليل بنفسه كثير باخوانه فتألفت الجمعية الخيرية الاسلامية فى آخر ولاية اسماعيل باشا والقلوب واجفة والافكار مضطربة وقد خرست الالسنة وغلت الايدى الى الاعناق حتى ولاية محمد توفيق باشا فقام المترجم يثبت دعائم دعوته ويبث فى الاذهان فوائد الاجتماع بلسان طلق فبرزت الجمعية الخيرية بمساعيه فى ثوب الائتلاف وتسارع أعيان الثغر ووجهاؤه للانتظام فى سلكها وكانت هى أول جمعية اسلامية اسست فى القطر المصرى وكانت ترمى الى غرض واحد هو تربية النشء وبث روح المعارف فيهم لترقية الافكار وتطهير الاخلاق من دنس الجهالة

فأنشأت هذه الجمعية مدرسة لتعليم الايتام وأبناء الفقراء مجانا فسعى المترجم جهده حتى أكسبها عناية أمير البلاد فجعلها تحت رئاسة ولى عهده ووريث تاجه اذ ذاك وهو الخديو عباس باشا حلمى . فكان ذلك ادعى لنشاط رجالها وزيادة اهتمامهم فسعوا فى توسيع دائرة المدرسة واستحضروا لها فضلاء المعلمين من العرب والافرنج وأقاموا المترجم مديرا لها فوضع لها أساسا محكما وعلم فيها الانشاء وعلوم الادب فنمت وزهت حتى زاد عدد الطلاب فيها على الثلثمائة فى زمن وجيز ورتبت لها نظارة المعارف ٢٥٠ جنيها كل عام

فلما رأى المترجم أن غرسه قد كاد يثمر التمس من الخديو توفيق ان ينعم على الجمعية بالمدرسة البحرية لاتساعها وجودة موقعها فأجابه الى ماطلب

ولقد بلغت هذه المدرسة من الشهرة وبعد الصيت على قصر المدة مالم يبلغه غيرها فى ازمان متطاولة ونالت من التفات الخديو توفيق باشا ونجليه الخديوى عباس باشا وشقيقه مارفع قدرها ونشطها وزادها زهوا ونماء مع ما كان يبذله صاحب الترجمة من العناية فى عقد الحفلات العامة فى بهو المدرسة يحضرها كبار القوم وسراتهم فيسمعون المطرب والعجيب منه ومن تلامذته ثم ينصرفون ولاحديث لهم الا ترداد ماسمعوه من العبارات الاخذة بمجامع القلوب

وفى تلك الاثناء مثل المترجم بالاسكندرية حالة البلاد وكيف يكون الوصول الى الشهامة والمروءة بروايتيه المشهورتين باسم « الوطن » و « العرب » مثلهما هو وتلامذته فى ملهى زيزينيا بحضرة الخديو فكان لهما فى نفسه من حسن الوقع ما بعثه على أن يدفع من ماله الخاص مائة جنيه مساعدة للجمعية . ولكن الحسد جر بعض ذوى النفوذ الى الايقاع بالنديم ففصل عن الجمعية واقيل من ادارتها

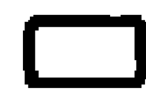


وكان قبل ذلك قد ترك الكتابة الادبية واشتغل بالتحرير السياسى على الاسلوب الحديث بلا سجع ولا تقفيه فكان يحرر فى جريدتى « المحروسة » و « العصر الجديد » اللتين صرح للمرحوم سليم افندى النقاش باصدارهما عقب الغاء « التجارة ومصر » وابعاد المرحوم اديب افندى اسحاق الى خارج مصر فجاء فيهما بالمعجب والمطرب

وما زال كذلك حتى استدعى صاحبهما من بيروت الكاتبين الفاضلين سليم افندى عباس والمرحوم فضل الله افندى الخورى فترك لهما أمر هاتين الجريدتين وانشأ « التنكيت والتبكيت » وهى جريدة اسبوعية ظاهرها هزل وباطنها جد فاودعها مالم يسبقه احد من كتاب العرب اليه

ثم استبدلها بالطائف على ماقضت به المناسبات قبل

الثورة العرابيةوكانت « الطائف » سياسية محضة بلغت من الشهرة مالم تبلغه جريدة قبلها من التأثير على الاذهان

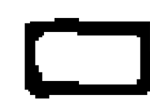


اما قيامه بنصرة الحزب الوطنى العرابى فسببه انه لاقى من معاملة الحكومة له ولغيره ما يدل على تفضيلها الاجنبى لخدمتها عن الوطنى واتفق ظهور نيران الثورة فأصابت منه هوى فى الفؤاد فتمكنت لانه سمع رجالا تنادى بطلب الاصلاح وتعقد الاجتماعات العلنية مجاهرة بمقاصدها فى أهم الصحف حتى اتفقت الاراء على ان فى مصر حزبا وطنيا لاهم له الا انتشال البلاد من وهدة الخراب فكانت رسل الحزب العسكرى تتردد على المترجم ورؤساؤه يكرمونه ويعظمونه فما زالوا به حتى انضم اليهم فوسموه بخطيب الحزب الوطنى واتخذوا جريدته مجالا لاقلام كثيرين منهم ومظهرا لافكارهم

ولم يمض بضعة أسابيع حتى هاجت القاهرة وماجت اذ انبأها البرق بضرب الانجليز للاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وانتشاب الحرب بينهم وبين عرابى فقام المترجم مع محمود باشا سامى البارودى وغيره من رؤساء الجند المتخلفين الى الاسكندرية فوجدوا الجيش المصرى يتأهب لمغادرتها الى كفر الدوار بعد أن صارت معالمها دوارس فباتا (هو وسامى) فى منزل المترجم . فلما كانت موقعة التل الكبير فى ١٥ من شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ وقت السحر فر عرابى واخوه وعلى الروبى وتبعهم المترجم فجاؤوا القاهرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر وساروا توا الى قصر النيل مركز نظارة الحربية اذ ذاك فتألف وفد ليسيروا الى الاسكندرية والنديم فى جملتهم ، ولكنه لم يصل الاسكندرية بل عاد من كفر الدوار واختفى من ذلك الحين ... فقضى عشر سنوات مختفيا فى مديرية الغربية بين ميت الغرقا

والعتوه والجيزة وغيرها فيتنكر تارة بزى الدراويش وطورا بزى المغاربة أو غيرهم ، والحكومة تبث العيون والارصـــاد للقبض عليه وهو أقرب اليها من حبل الوريد

فلما أعيتها الحيلة جعلت لمن ينبئها بمكانه مكافأة مقدارها الف جنيه . وكان العارفون بمكانه كثيرين ولـكنهم حافظوا على ولائه فاخفوه مكرما معززا حتى قبض عليه فى شـــهر نوفمبر سنة ١٨٩١ فى اواخر ولاية الخديو توفيق باشا فجيء به الى طنطا حيث حبس اياما وسئل عن موجب اختفـائه فأوضـحه فأمر بابعاده الى حيث يشاء من البلاد غير المصرية فاختار يافا من ثغور فلسطين فسافر اليها باكرام واقام هناك مدة ثم أزمع السياحة فى تلك البلاد المقدسة فخرج من يافا فى مارس سنة ١٨٩٢ مع صديق له الى جبل الطور المسمى جبل جارزيم وزارا مقام العزيز هناك وقبور كثيرين من الانبياء ومرا بأماكن كثيرة من جملتها نابلس ومدينـة الخليل وبيت لحم والمسجد الاقصى ثم عادا الى يافا



وفى تلك السنة (١٨٩٢) تولى أريكة الخديوية سمو عباس باشا الثانى فعفا عن المترجم فعاد من يافا الى القاهرة وظل مترددا بينها وبين الاسكندرية أكثر من شهر ثم اتخذ الاولى موطنا وانشأ بها مجلته العلمية الادبية التهذيبية « الاستاذ » فنالت من الشهرة والانتشار فى شهور مالم تنله سواها فى اعوام وكان لها تأثير شديد فى أفكار الامة على اختلاف نحلها

ثم الغيت لاسباب سياسـية وكلف المترجم بالخروج من مصر فغادرها ثانيـــة الى يافا ودفعت له الحكومة المصرية اربعمائة جنيه يعتد بها لسفره ورتبت له ٢٥ جنيها كل شهر على شرط الا يكتب شيئا فى الجرائد يختص بسياسـة مصر فلبث أربعة اشهر فى يافا . ثم أعيد منها بارادة سلطانيـة

فرجع الى الاسكندرية وأقام فيها أياما قابل فى خلالها صاحب الدولة الغازى مختار باشا المندوب السلطانى العالى فساعده هذا على المسير الى الاستانة فسافر اليها . وصدرت الارادة السلطانية بتعيينه مفتشا للمطبوعات بالباب العالى وترتيب ٤٥ جنيها مجيديا له كل شهر فوق ما كان يتقاضاه من الحكومة المصرية وكان ينفقها كلها فى سبيل الخير والبر بالاهل والاقارب والاصدقاء

وقد نال لدى المقام السلطانى الحظوة الكبرى وتعرف بكثير من الوزراء وارباب المظاهر العلمية ولكنه اختص بالملازمة والمودة للامام العلامة الفيلسوف السيد جمال الدين الافغانى فاتصلت بينهما اسباب الالفة وتمكنت منهما روابط الاتحاد وقد بلغ تعلق السيد جمال الدين به وجميل اعتقاده فيه انه اصبح وامسى يعجب بقوة حجته فى المناظرة والجدل وسرعة بديهيته فى التحضير حتى صرح فى عدة مجالس بأنه ما رأى مثل النديم طول حياته فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الالفاظ وضعا محكما بازاء معانيها ان خطب أو كتب

وقد كان يود الرجوع الى مصر ليقضي بها بقية أيامه فلم تتح المنية ذلك فداهمته بمخالبها فقضى فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٩٦ وأمر جلالة السلطان أن يحتفل بمشهده على نفقة الجيب الشاهانى الخاص فسار أمام نعشه فرقتان من الجيش وفرقة من الشرطة وتلامذة المكتب السلطانى وعدة من الوجوه والكبراء والعلماء يتقدمهم السيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد ظافر شيخ السلطان والسيد عبد الرحمن الجزولى حتى دفنوه فى باشكطاش . ولقد مات المترجم ولم يورث اهله الا الحزن والعناء لانه كان يقبض مرتبه من مصر والاستانة فلا تمضى عليه بضعة ايام حتى يفرغ من توزيعه على الاقارب والاباعد دون نفسه

أما أخلاقه فانه كان برا بوالديه وذوى قرابته وقصاده ولو لم يكن يعرفهم ، فما أقرض احدا شيئا وطالبه به ولا رد يوما سائلا ولا خضع لعظيم قط وانما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأوساطهم وكان ذكيا فطنا قوى الحافظة فصيحا جريئا شاعرا مطبوعا وكاتبا ناثرا

مؤلفاته وكتاباته

ومن مؤلفاته الكثيرة ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المحيا . وديوان آخر فى نحو ثلاثة آلاف بيت . وروايتا « الوطن » و «العرب» ورسائل أدبية مسجوعه لم تصل ايدى جامعى السلافة منها الا الى اربع عشرة رسالة بعد السعى الكثير ومكابدة العناء الجزيل ، وكان ويكون (وهو الذى طبع بعضه فى الاستاذ) وواحد وعشرون كتابا فى فنون مختلفة قطع لاجلها ايام حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الاقلام . منها ديوان شعر يحتوى على مايقارب عشرة آلاف بيت وهو الآن محجور عليه فى الاستانة . ومنهما النحلة فى الرحلة . والاحتفاء فى الاختفاء . والشرك فى المشترك . وكتاب فى المترادفات . وآخر فى اللغة سماه موحد الفصول وجامع الاصول والفرائد فى العقائد . واللآلىء والدرر فى فواتح السور . والبديع فى مدح الشفيع . وامثال العرب وغير ذلك

وقد فقد كثير من مؤلفاته ومنظوماته حرقا أو ضياعا أو اغتيالا على أن شقيقه عبد الفتاح افندى نديم وصديقه محمود افندى واصف قد عنيا فى جمع ماتيسر من ذلك فى كتاب سمياه « سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله نديم » وطبعاه فمن اراد الاطلاع على ماكتبه النديم أو نظمه او خطبه فعليه بالسلافة

الشيخ ناصيف اليازجي

١٢١٥ – ١٢٨٨ هـ الموافق ١٨٠٠ – ١٨٧١ م

هو الشاعر المطبوع واللغوى المدقق والنحوى المحقق أحد أركان النهضة اللغوية فى بلاد الشام بن عبد الله بن ناصيف ابن جنبلاط بن سعد اليازجي اللبنانى المولد الحمصي الاصل هاجر جده سعد المذكور من حمص مع جماعة من ذويه نحو سنة ١٦٩٠م لحيف لحقهم فى تلك الديار فتوطن أناس منهم فى ساحل لبنان فى الجهة المعروفة بالغرب وآخرون فى وادي التيم وتفرق بعضهم فى مواطن اخرى ولا تزال بقيـــة أسرتهم فى حمص ونواحيها وهم عشيرة كبيرة من ذوي الوجاهة واليسار

وكان مولد صاحب الترجمة فى قرية كفر شيما من قرى الساحل المذكور فى ٢٥ مارس سنة ١٨٠٠ م وكانت وسائل التعليم اذ ذاك محصـــورة فى جماعة الاكليروس فتلقى القراءة البسيطة على القس متى من قرية بيت شباب . وكان والده من الاطباء المشهورين فى وقته على مذهب ابن سينا وكان مع ذلك اديبا شاعرا الا انه كان قلما يتعـــاطى النظم لقلة الدواعى اليه اذ ذاك ومن شعره أبيات قرظ بها ديوان الخورى حنانيا المنير احد شعراء ذلك العصر لم يحفظ منها الا بيتان رواهما لنا حضرة حفيـــده اللغوى الشهير الشيخ ابراهيم اليازجي صاحب مجلة «الضياء» وقد اعتمدنا عليه فى تحقيق اكثر ما أثبتناه فى هذه الترجمة ـ اما البيتان فهما قوله فى مطلع ذلك التقريظ :

عش بالهنا والخير والرضوان　　　يامن عنيت بنظم ذا الديوان

اني لقـد طالعته فوجـدته		نظمـا فريدا ما له من ثان

فنشأ ولده على الميل الى الادب والشعر واقبل على الدرس والمطالعة بنفسه وتصفح ما تصل اليه يده من كتب النحو واللغة ودواوين الشعراء ونظم الشعر وهو فى العاشرة من عمره ومن نظمه فى الصبا قوله :

ولما تثنى وهو ريان معطف		يميل على سفح العقيق ويخطر
تذكرت أغصان الرياض يهزها		نسيم الصبا والشبه بالشبه يذكر

ومن ذلك قوله أيضا :

كف عنى لا أبالك		قد تبينـا محالك
وعرفنـاك والا		فمتى نعرف حالك
قد مضى لى بك عصر		حاملا فيـه ملالك
حسب قلبى منك جور		كاد منـه يتهالك
وكفانا ما احتملنـا		منك فاستدع احتمالك
سترى النادم منا		ويسىء الله فالك

ولما لم تكن الكتب لذلك العهد ميسورة لقلة المطبوع منها اذ لم يكن فى البلاد السورية ولا المصرية الا مطابع نادرة قلما كانت تشتغل بطبع الكتب العلمية كان جل معتمده على كتب يستعيرها من بعض الديار والمكاتب القديمة. فمنها مايقرأها مرة فيحفظ زبدتها ومنها ماينسخها بخطه ، ولايزال كثير من تلك الكتب باقيا الى اليوم محفوظا عند أسرته وهى جميلة الخط على القاعدة الفارسية وبعضها يبلغ عدة مئـات من الصفحات . وقد بلغ من كل علم من علوم العربيـة لبابه ودرس أشهر مصنفاته وله فى جميعها مؤلفات مشهورة هى اليوم عمدة التدريس فى اكثر المدارس المسيحية . وله ثلاثة دواوين شعرية تعد من عيون الشعر كثير منها محفوظ على الالسنة ولاسيما الابيات الحكمية منها وهى فى شعره اكثر من أن تحصى وله المقامات المشهورة باسم «مجمع البحرين» وهى ستون مقامة اودعها من فنون الانشاء وصناعات البديع



ناصيف اليازجي

ومن غريب اللغة والفاظها المنتقاة وأمثـــال العرب والآيات الشريفة مادل على طول باعه وغزارة محفوظه وذلك فضــلا عما أودعها من المسائل العلمية فى كل فن وماضمن شرحها من تواريخ العرب وأنسابهم ووقائعهم

ثم انه لما بلغ أشده اتصل بالامير بشير الشهابى الشهير فقربه اليه وجعله كاتبا ليده . فلبث فى خدمته أثنتىعشرة سنة . ولما كانت سنة ١٨٤٠ وهى السنة التى خرج فيها الامير بشير من البلاد الشامية انتقل صاحب الترجمة بأهل بيته الى بيروت فأقام بها وتفرغ للمطالعة والتأليفوالتدريس ونظم الشعر ومراســـلة الادباء حتى لهج بذكره القطرين : الشامى والمصرى

وكانت تتوارد اليه ركائب الزائرين من كل صقع وفيهم العلماء والوزراء وفى جملة من زاره منهم محمد عزت باشـــا احد قواد الجنود السلطانية فمدحه بأبيات ارتجالية يقول فى مطلعها :

أعطى محمد عزة من فضله شرفا لساحتنا بوطـأة نعله

ومنها يقول :

يا زائرا بيتى أراك فتنتــه فعليك بيت غيره من مثله
أجللته عنى فصرت أهابه حتى كأنى لم أكن من أهله

وأقبلاكابر الشعراء منجميع الانحاء العربية علىمراسلته ومدحوه بما دل على وفور فضـــله وعلو كعبه فى الشعر والادب ، ومما قال فيه الشيخ عبد الباقى العمرىالبغدادى حين وقف على النبذة الاولى من ديوانه :

على نبذة من شعر ناصيف ذى الفضل
وقفت ومنى العين فى موضـــع الرجل
وطــأطــأت اجلالا لها راس شـــامخ
لاخمصـــه هام العلى موطىء النعـــل

وهي قصيدة طويلة يقول منها :

اذا أنكرت دعواه في الشعر فتية
أقام عليها شاهد العقل والنقل
وان رام شعري أن يباري شعره
يقول شعوري انني عنك في شغل

ثم انه ما زال عاكفا على التعليم والتصنيف والنظم والنثر حتى أصيب بمرض عضال سنة ١٨٦٩ فانفلج فالجا نصفيا عطل شطره الايسر فلزم داره ولكنه مابرح ينظم الشعر ويتلقى السائلين والمستفيدين الى أن فاجأه القدر بوفاة بكره المرحوم الشيخ حبيب فوقع ذلك الحادث عليه وقوع الصاعقة ولم يعش بعد ذلك الا أربعين يوما . وكان قد بدأ بنظم قصيدة يرثيه بها ثم غلب عليه الحزن حتى لم يعد يملك عنان قريحته . ومما نظم في هذه القصيدة قوله :

ذهب الحبيب فياحشاشة ذوبي — أسفا عليه ويا دموع أجيبي
ربيته للبين حتى جاءه — في جنح ليل خاطفا كالذيب
يا أيها الام الحزينة اجملي — صبرا فان الصبر خير طبيب
اني وقفت على جوانب قبره — أسقي ثراه بمدمعي المصبوب
ولقد كتبت له على صفحاته — يالوعتي من ذلك المكتوب
لك ياضريح محبة وكرامة — عندي لأنك قد حويت حبيبي

وهي آخر ما نظمه وبعد أيام عاودته السكتة الدماغية فمات فجأة وكانت وفاته في ٨ فبراير سنة ١٨٧١ بعدما لزمه الداء مايقرب من سنتين فعظم خطبه عند كل من عرف فضله أو سمع بذكره وكان له مأتم حافل شهده الكبراء والعظماء من بيروت ولبنان ومشى في جنازته ماينيف عن عشرة آلاف نفس . وولد له ١٢ ولدا ورثوا ذكاءه وسرعة خاطره ولم يخلفه منهم في خدمة اللغة وآدابها الا الشيخ ابراهيم صاحب « الضياء »

صفاته

وكان رحمه الله معتــدل القامة فوق الربعة أسمر اللون حنطيه اسود الشعر أجش الصوت مهيبا وقورا شهما كاملا متواضعا متأنيا فى حديثه قليل الضحك عفيف اللســان لم تسمع له كلمة بذيئة قط لا فى حديثــه ولا فى كتابته ولم يهج أحدا ولا هجاه أحد فى زمانه غير بيتين قالهما على سبيل الفكاهة فى بخيل وهما :

قد قال قوم ان خبزك حامض والبعض أثبت بالحلاوة حكمه
كذب الجميع بزعمهم فى طعمه من ذاقه يوما ليعرف طعمه ؟

وكان اذا ذكر احــد امامه بســوء أطرق وأغضى كأنه لايسمع . وكان ودودا مخلصا سريع الفهم قوى الذاكرة متسع المدارك اذا حدث أخذ بمجامع القلوب لكثرة رواياته ونكاته وكان يروى القصة بتواريخها وأسماء أصحابها واسماء بلدانهم ولم يكن على شيء من التأنق فى اللفظ ولكن حديثــه كان كأبسط اهل وقتــه . ومن غريب ذاكرته انه كان اذا نظم الشعر لايكتبه بيتا بيتا ولكنه كان ينظم الابيات ثم يكتبها حتى انه فى مدة اعتلاله نظم مرة ثمانية عشر بيتا ثم أملاها دفعة واحدة . وقد ألف احدى مقاماته وهى المقامة اليمامية على ظهر الفرس وكان مسافرا بأهل بيته من بيروت الى بحمدون سنة ١٨٥٣ بقصد الاصطياف فلما انتهى اليها اخذ قرطاسا فعلقها . وكان يحفظ القرآن بتمامه ويعى من الشعر شيئا كثيرا ولاسيما شعر المتنبى لشدة اعجابه به وكان يقول كأن المتنبى يمشى فى الجو وسائر الشعراء يمشون على الارض

شعره

أما شعره فقد كان سلسا حسن الالفاظ والتراكيب فضلا عما له من المعانى المبتكرة والاكثار من الحكمة وضرب الامثال

ومع قلة رغبته فى الغزل فان الغزل القليـــل الذى له فيه خفة ورقة مثل قوله :

حواك وقد حللت بكل قلب فؤاد لم يحل به ســـواك
نزلت به على طلـــل تفانى ولست بمن على طلل تباكى
اطعت العاذلين بقتـــل صب يريد القتل لـكن عن رضاكا
تعز كرامة ويهـــون ذلا فتأنف أن يقول دمى فداكا

وقوله :

أخاف اذا أشار براحتيه لعلمى أن روحى فى يديه
ويخفق عند نظرته فؤادى لأن ســـواده من مقلتيه

وقوله :

ان كان يلبس ما أفاد تجملا فبياض هذا الجيد تلبسه الحلى
واذا تزينت العيـــون بكحلها فلقد نراه بمقلتيك تكحلا
ياناحل الاعطاف معشوقا ترى أتلوم مثلى عاشـــقا أن ينحلا
حاولت سفك دمى بعينك ثانيا هيهات قد سفكته عينى أولا

وقوله وهو مما نظمه فى صباه :

الوى على فضمنى وضممته وصدورنا بصـــدورنا لم تعلم
أهوى عليه وفى عفة يوسف حتى يميـــل وفيه عفة مريم

ومن نظمه فى المديح قصيدة مدح بها اســـعد باشا قائد جيش البلاد العربية قال فيها :

اذا قام من تحت السرادق راكبا اقام عجاجا فوقه كالسرادق
ولما راينا كيف تنقض خيله علمنا بها كيف انقضاض الصواعق
تفارق أطراف البلاد خيـــوله واصواتها فى قلبها لم تفارق

وله فى الحكم شىء كثير منه قصيدة جرت أبياتها مجرى الامثال مطلعها :

لعمرك ليس فوق الارض باق ولا مما قضاه الله واق

ومنهـــا :

أضل الناس فى الدنيا سبيلا محب بات منها فى وثاق

واخسر مايضيع العمر فيه فضول المال تجمع للرفاق
ومنها :

ألا يا جامع الاموال هلا جمعت لها زمانا لافتراق
رأيتك تطلب الابحار جهلا وأنت تكاد تغرق فى السواقى
اذا احرزت مال الارض طرا فمالك فوق عيشك من تراق
اتأكل كل يوم الف كبش وتلبس ألف طاق فوق طاق
فضول المال ذاهبة جزافا كماء صب فى كأس دهاق

وله من قصيدة :

متى ترى الكلب فى أيام دولته
فاجعل لرجليك أطواقا من الزرد
واعلم بأن عليك العار تلبسه
من عضة الكلب لا من عضة الاسد

وله فى صناعة التاريخ الشعرى اليد الطولى والتفنن الغريب ولم يحدث حادث هام فى أواسط القرن الماضى يستحق حفظ تاريخ حدوثه الا نظم الشيخ اليازجى أبياتا فى تاريخه. ومن اشهر ما نظمه فى هذا الباب بيتان قالهما فى فتح عكا يتضمنان ٢٨ تاريخا وبيتان آخران نظمهما فى السلطان عبد العزيز . وله من هذا القبيل قصيدة هنأ بها ابراهيم باشا المصرى بفتح عكا ضمن كل بيت منها تاريخين لسنة ١٢٤٨ هـ يقول فى مطلعها :

الزهر تبسم نورا عن أقاحيها
اذا بكى من سحاب الفجر باكيها

ومع التزامه التاريخ فيها لاترى تكلفا فى تركيبها مطلقا ومن مديحها قوله :

كل البلايا من الدنيا متى نزلت بنا ، فنيران ابراهيم تطفيها
نار ونور متى قال النزال له والجود هات يدا لم يلق ثانيها

وله قصيدة من هذا النوع فى مدح السلطان عبد العزيز

وقد أمر له بالانفاق على طبع بعض كتبه من الخزينة الخاصة مطلعها :

قف بالمطـــايا على انجاد ذى ســـلم
وقل ســـلام على من دام فى الخيم

ومن مخترعاته فى فن النظم عاطل العاطل وهو أن تـكون أحرف الكلمة خالية من النقــط واذا تهجأت اسم الحروف كان هجاؤه أيضا خاليا من النقط وهذه الاحرف ثمانية فقط وهى الحاء والدال والراء والصاد والطاء واللام والهاء والواو وقد نظم من هذا الجنس أربعة ابيات فى مقــاماته « مجمع البحرين » وهى هذه :

حول در حل ورد   هل له للحر ورد
لحصور حلو وصل   ورده للصحو طرد
وله حـــول وطـــول   وله صـــد ورد
دهره حر صـــدور   هل له لله حـــد

وقد نظم من جنـــاس ما لا يستحيل بالانعكاس اربعة عشر بيتا وهى أيضا فى مقاماته ولم يسمع بهذا المقـــدار لشاعر قبله . ونظم بيتين طردهما مديح وعكسهما هجاء وهذا من مبتكراته وهما فى المقامات أيضا وله فيها غير ذلك من الفنون

مؤلفاته

واما مؤلفاته سوى ما تقدم ذكره من دواوينـــه ومقاماته فمعظمها من الكتب المدرسية لتلقى العلوم الادبيـــة . وقد سلك فيها ولاسيما فى الصرف والنحو مسلكا تدريجيا يناسب حالة الطالب فى كل سن فمنها المختصر الذى لا اختصار بعده كالرسالة المسماة « بالجوهر الفرد » وقد جمع فيها الصرف والنحو فى ست صفحات ، ومنها المطول الذى اتى فيه على اشهر اقوال المصنفين فى هذين العلمين مع الاحاطة بجميع قواعدهما وتعليل أحكامها كالارجوزتين اللتين سمى احداهما

« الجمانة فى علم الصرف » ، والاخرى « جوف الفرا فى علم النحو » تشتملان على مايزيد عن ألف وخمسمائة بيت كل واحدة منهما مشروحة بقلمه شرحا مستوفيا

وله بين ذلك مؤلفات أخرى منها النثر وهى « فصل الخطاب فى الصرف والنحو » أيضا ، وهو جامع لأصول هذين العلمين وقد وقع اجماع المدرسين على انه أفضل متن وضع فيهما وقد جمع فيه بين الاحاطة والاختصار حتى لايمكن أن يحذف منه كلمة ولايزاد عليه كلمة . وفى طبقتـــه وعلى أسلوبه « عقد الجمان فى علم البيان » و « نقطة الدائرة فى العروض والقوافى » و « قطب الصناعة فى المنطق » وهذه الكتب الاربعة مشروحة بقلمه. ومن ذلك أرجوزتان مختصرتان فى الصرف والنحو مشروحتان بقلمه أيضا ، سمى الاولى «لمحة الطرف فى أصول الصرف » ، والثانية « البـاب فى أصول الاعراب » . ومختصر آخر فى النحو سماه «طوق الحمامة» وهو نثر . وله فى البيان ارجوزة مختصرة سماها « الطراز المعلم » ، وارجوزة أخرى فى النطق ســماها « التذكرة » وشرح كلا منها شرحـــا موجزا . وارجوزة مطولة فى فن العروض والقوافى شرحها ولده الشيخ حبيب. وكان قد شرع فى وضع شرح لديوان المتنبى ولم يتمه ، فأتمه ولده الشيخ ابراهيم اليازجي وسماه «العرف الطيب فى ديوان ابى الطيب» وقد طبع هذا الشرح سنة ١٨٨٢ م

ابراهيم بك المويلحى

١٢٦٢ – ١٣٢٤ هـ الموافق ١٨٤٥ – ١٩٠٦ م

يتصل نسبه ببيت من البيوتات الكريمة التى ظهرت بمصر بعد الانقلاب فى أول القرن الماضى ، وكان جده السيد ابراهيم المويلحى فى أول أمره كاتبا للمرحوم حبيب أفنـــدى كخيا محمـد على باشــا ثم ارتقى كما ارتقى ســواه من ذوى المواهب فى مثل حال مصر فى دورها الانتقالى من عصر الامراء المماليك الى عصر التمدن الحديث اذ هددتها مطــامع الدول وحام حولها طلاب الســيادة من الوزراء والقواد فتسابقت العقول واختلفت الاغراض ففــاز كل بما بلغ اليه امكانه وساقته اليه فطرته . فارتقى بعضهم الى منصات الحـكم واثرى آخرون بالتجارة والزراعة أو الصــناعة أو غيرها . فكان للسيد ابراهيم المويلحى جد المترجم حظ كبير من ذلك الارتقاء . ومع انغماس أهل ذلك الانقلاب بالمطامع السياسية والمكاسب المالية واشتغالهم بالملاذ والمـلاهى لتسلط الجهـل على معظمهم فالسيد ابراهيم كان محبا للأدب لايخلو مجلسه من الادباء والشعراء يطارحهم ويذاكرهم . وقد ادى لمحمد على فى أوائل ولايته خدمات جليلة حفظها له ، فانتفع بها المترجم فى حال ضيقه كما سترى

نشــاته

ولد صاحب الترجمة فى أوائل سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٥م) فى بيت وجاهة وعز وكان والده مشهورا بصــناعة الحرير

نسيج مصر وله فيها بيت تجارى كبير فجمع ثروة طائلة . ونشأ ابراهيم فى سعة ورغد وهو يتهيـــأ للعمل فى تجارة والده ولكنه كان مولعا بالادب والشعر من حداثته ، ورث ذلك عن جده . ولم يخطرله ولا لوالده انه سيجعل الادب مهنته وهى يومئذ مهنة الفقراء .. ولكن الاقدار ساقته الى الاشتغال بها فى كهولته فكان من أعظم نوابغها

ظل ابراهيم فى حجر والده آمنا سعيدا حتى توفى الوالد سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) والمترجم فى العشرين من عمره فتولى تجارة أبيه وقبض على ثروته وجرى على خطته فى العمل حينا فازداد تقدما . وكانت مضاربات البورصـــة حديثة العهد فى هذا القطر وقد تحدث الناس بمعجزاتها وبهروا من سرعة الاثراء بها وكان ابراهيم طلابا للعلى فلم يكتف بما بين يديه من الرزق الواسع وحدثته نفســـه أن يطلب الزيادة بالمضاربة فضـارب وهو يكسب تارة فيطمع بالمزيد ويخسر أخرى فيطلب التعويض على نحو مانشاهده الآن مع مايعلمه الكثيرون من عواقبها الوخيمة . فما زال المترجم يتدرج فى المضاربة حتى استنزفت ثروته وأثقلته الديون

بين التجارة والوظيفة

على ان فروغ يده من المال لم يذهب بما نشأ عليه من العز والانفة ولاضاعت مآثر جده لدى البيت الخديو . فنظر اسماعيل باشا الخديو يومئذ فى هذا البيت نظرة العطف، وكان اسماعيل اذا أعطى أغنى . فوهبه هبات الملوك فوفى الديون ووسع التجارة . ثم انعم عليه بالرتبة الثانية وعينه عضوا فى مجلس الاستئناف وهو فى الثـــامنة والعشرين من عمره وانعم على أخيه عبد السلام باشا بتلك الرتبة أيضا. وإبقاه فى مزاولة التجارة محافظة على ذلك المعهد التجارى . وتأييدا لذلك اصدر أوامره لجميع من فى قصـــوره من النساء أن



ابراهيم المويلحي

يلبسن الانسجة المصرية من صنع هذا البيت وان لايدخل فى تشريفات السيدات سيدة مرتدية غير هذه الانسجة . وامر بصنع كمية عظيمة منها لارسالها الى معرض فينا فى تلك الايام

وما زال المترجم فى وظيفته بمجلس الاستئناف حتى افضت رئاسته الى المرحوم حيدر باشا يكن فوقع بينهما شقاق انتهى باستقالة المترجم ولكن عناية الخديو اسماعيل مازالت شاملة له فأمر باعطائه مصلحة دمغة المشغولات والمنسوجات على سبيل الالتزام. واتفق فى أثناء ذلك سقوط وزارة نوبار باشا المختلطة التى كان فيها عضوان اجنبيان وخلفتها وزارة شريف باشا المعروفة بالوزارة الوطنية وهموا بانشاء اللائحة الوطنية لتأسيس مبادىء الحكومة الدستورية . فانتدب المترجم للاشتغال فى ذلك مع المرحوم السيد على البكرى . ثم صدر الامر بتعيينه سكرتيرا للمرحوم راغب باشا ناظر المالية . ولم يتول هذه الوظائف الا لما ظهر من نجابته وسداد رايه

تاسيس جمعية المعارف

على أن ميله الى الادب والشعر كان ينمو فيه بين مشاغل السياسة والادارة فاتفق مع المرحوم عارف باشا احد أعضاء مجلس الاحكام بمصر وصاحب المآثر الكبرى فى نشر الكتب على تأسيس جمعية عرفت بجمعية المعارف غرضها نشر الكتب النافعة وتسهيل اقتنائها وانشأ هو مطبعة باسمه سنة ١٢٨٥ لطبع تلك الكتب وهى من اقدم المطابع المصرية . على ان الجمعية كانت تطبع كتبها أيضا فى مطابع أخرى وخصوصا المطبعة الوهبية ، ولهذه الجمعية شأن كبير فى تاريخ هذه النهضة لأنها نشرت كثيرا من الكتب المهمة «كتاج العروس» و « أسد الغابة » و « رسائل بديع الزمان » و « سلوك المالك » و « ألف باء » وغيرها من كتب التاريخ والادب والفقه

اما صاحب الترجمة ففى السنة التالية لانشاء مطبعته اتحد مع محمد عثمان بك جلال لانشاء جريدة عربية ولم يكن من الجرائد العربية يومئذ الا « الجريدة الرسمية » وجريدة « وادى النيل » فنال رخصة بجريدة سماها « نزهة الافكار » ولكنه لم يصدر منها الا عددين ، ثم حالت العوائق دون اصدارها ويقال عن السبب فى ذلك ان المرحوم شاهين باشا اظهر لاسماعيل باشا تخوفه من أنها تثير الافكار وتبعث على الفتن فصدر الامر بالغائها وظلت المطبعة تشتغل بطبع الكتب لجمعية المعارف وغيرها وقد طبع فيها كتبا على نفقته

تقلبه فى اعماله

فترى المترجم رحمه الله قد تقلب فى أعمال مختلفة بين تجارة وخدمة فى الحكومة وانشاء المطابع والجرائد ونشر الكتب وغيرها وهو دون الثلاثين من العمر ولم ينل كل مرامه من واحد منها مع اقتداره وذكائه ولعل السبب فى ذلك لحاجته فى استثمار عمله قبل أن ينضج وعدم ثباته فى خطة واحدة. لأنه لو ثبت فى التجارة مثلا ولم يرغب عنها فى خدمة الحكومة لكانت تجارته من أوسع التجارات أو لو ثبت فى الخدمة ولم يعدل عنها الى الصحافة والطباعة لكان من اكبر اصحاب المناصب ولو ثبت فى الصحافة الى الآن لكانت صحيفته من اكبر الصحف وأهمها ولكنه لم يكن يستقر على حال، والاذكياء الذين لايثبتون فى عمل انما يكون سبب تقلبهم الرغبة فى النجاح السريع يريدون الطلوع الى الاوج دفعة واحدة . فاذا استبطأوا الوصول الى قمة النجاح فى عمل تركوه وانتقلوا الى سواه فيؤول ذلك فى الكثير الى ضياع العمر فى بناء القصور فى الهواء . ولو ثبتوا فى عمل واحد مهما يكن نوعه لكفاهم مؤونة الشكوى من معاكسات الزمان

على ان المترجم لم يشك ضيما لأنه كان مرعى الجانب وما

زال الخديو اسماعيل يذكر صـــدق خدمته له ، فلما حدث التغيير فى منصب الخديوية سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨م) وأبعد الخديو الى أوربا واستقر فى ايطاليا اســـتقدم المترجم اليه فجاءه وأقام فى معيته بضع سنوات كان فى أثنائها كاتب يده (سكرتيره العربى) يكتب عنه الرسائل الى الملوك والامراء . ولم يكن ذلك ليمنعه من العمل لنفسه فأنشأ فى أثناء اقامته بأوربا عدة جرائد كجريدة « الاتحاد » وجريدة « الانباء » ولم يثبت فى واحدة منهما أو لعله كان ينشئها لغرض مؤقت فاذا ناله عطلها . وقال المؤيد انه اشترك مع المرحوم السيد جمال الدين الافغانى فى تحرير « العروة الوثقى »

حياته فى الاستانة

وفى سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) ذهب الى الاستانة على اثر انشائه تلك الجرائد فأكرم السلطان وفادته وعينه عضوا فى مجلس المعارف وكان ناظرها يومئذ منيف باشا العـــالم الشهير فقدر الرجل حق قدره وقربه منه وعول عليه فى كثير من شؤون النظارة . وبعد أن أقام فى هـــذا المنصب نحو عشر سنوات عاد الى مصر وعاد الى الاشتغال بالكتابة وقد نضجت مواهبه الانشائية واكتسب ملـكة الصحافة لطول ممارسته اياها مع ما اختبره بنفسه فى أثناء أسفاره ومخالطته كبار رجال السياسة واطلاعه على خفايا الامور . فعمد أولا الى مراسلة الجرائد بمقالات جامعة بين السياســـة والادب وقواعد العمران أشهرها جمع على حدة فى كتاب «ماهنالك» ثم أنشأ جريدة « مصباح الشرق » الاسبوعية وهو يتردد فى خلال ذلك الى الاســـتانة ويعود منها مشـــمولا بالنعم السلطانية من العطايا والرتب حتى بلغ الرتبـــة الاولى من الصنف الاول وما زال عاملا فى خدمة الصحافة العربيـــة حتى توفاه الله فى ٢٩ يناير ســـنة ١٩٠٦ وهو فى الثانية والستين من عمره

صفاته

كان ربع القامة ممتلىء الجسم حسن الملامح . وكان حلو الحديث لطيف النادرة سريع الخاطر حسن الاسلوب نابغة فى الانشاء الصحفى وفى الطبقـــة الاولى بين كتاب السياســـة رشاقة ومتانة وأسلوبا مع ميل الى النقد والمداعبة ولايخلو نقده من لذع أو قرص ، لايراعى فى ذلك صديقا ولا قريبا حتى قيل : « لم ينج من قوارص قلمه الا الذى لم يعرفه» وقد انتقدوا عليه تقلبه فى خطته وذلك تابع لتقلبه فى سائر احوال حياته لما قدمناه من تردده فى أعماله حتى قضىالعمر فى التنقل من عمل الى آخر . وضاعت الفـائدة التى كان يرجى استثمارها من مواهبه لأنه كان نادرة فى الذكاء وحدة الذهن والقدرة على فهم الامور والاحـاطة بخفاياها وكشف غوامضها ، فلو رافقه الثبات فى المبادىء والاعمال لكان من هذا الرجل غير ماكان

وهاك مثالا من انشائه رحمه الله يصف موكب صلاة الجمعة فى الاستانة قال :

« ماقيصر فى موكب انتصاره ولا الاسكندر فى يوم افتخاره أستغفر الله بل ماسعد قادما من القادسية ولا المعتصم من عمورية أملأ للقلوب مهابة ولا للعيون بهاء من رؤية جـلالة السلطان يوم الجمعة فى موكبه

« فى يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ترد العساكر رجالا وفرسانا من اطراف الاستانة الى بشكطاش عشرة آلاف او يزيدون فينتظرون فى طريق السراى السلطانية صدور الارادة السنية بتعيين المسجد . وهى عادة جارية الى اليوم وان كان المسجد الحميدى قد اختص بصلاة جلالته دون ســـواه . فاذا صدرت الارادة اجتمعت العساكر فى ســاحة المسجد امام باب السراى واصطفت صفوفا مضـــاعفة بعضها وراء بعض . وفى هذه الاثناء تتسابق مركبات المشيرين والوزراء

والمشايخ والاجانب من السفراء وغيرهم فيجلس السفراء ومن كان معهم من علية قومهم الوافدين على الاستانة فى قاعة الجيب الهمايونى المطلة على تلك الساحة التى لايسمع السامع فيها قيلا ولا صهيلا الا صليل الاسياف وترديد الانفاس هيبة واجلالا وانتظارا واستقبالا لاشراق نور الحضرة السلطانية. فاذا حان وقت الصلاة اشرقت المركبة السلطانية المذهبة كالشمس ضياء من مطلع السراى تحمل الامام نائب الرسول صلى الله عليه وسلم ويجلس أمامه الغازى عثمان باشا . والمشيرون وكبار رجال المابين حافون من حول المركبة مشاة خشع الابصار ترهقهم ذلة من جلال تلك العظمة الامامية وهم فى غير هذه الساعة أكاسرة الزمان وقياصرة الرومان كبرا وجبروتا وكلهم فى أمواج الملابس الذهبية يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الابصار وتأخذ الالباب . حتى أن الناظر ليكاد يوالى الحمد لله تباعا على مامنحه للدولة من عديد الرجال الصادقين فى خدمة الامة والملة بشهادة الكلمات الناطقة فوق النياشين ، لولا مايعتريه من الاشتباه فيهم والنيشان عنوان كتبته الدولة ووضعته على صدر حامله شهادة منها للناس ببيان ماهو مكنون وراءه من فضائل الغيرة والحمية . فاذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكنون فى القلب كانت كبائع يغش الناس بوضعه على زجاجة الخل عنوان ماء الورد . . » الخ



بطرس البستانى

١٢٣٥ – ١٣٠١ هـ الموافق ١٨١٩ – ١٨٨٣ م

فى اقليم الخروب من قضاء الشوف فى جبل لبنـان قرية صغيرة على مسافة ثلاث ساعات من دير القمر وثلاث ساعات ونصف من صيدا وسبع ساعات من بيروت يقال لها الدبية عدد سكانها خمسمائة نفس من طائفة الموارنة وقليل من البروتستانت نشأ فيها غير واحد من مشاهير اللبنانيين جميعهم من آل البستانى أشهرهم المرحوم المطران عبدالله البستانى والمطران بطرس البستانى والمعلم بطرس البستانى صاحب الترجمة وقد اقتطفنا ترجمة حياته مما كتبته جرائد الشام على أثر وفاته واثبتته دائرة المعارف فى جزئها السابع ومما عرفناه بنفسنا من آثار اجتهاده وفضله

هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن ابى شديد بن محفوظ البستانى من اعيان الطائفة المارونية . ولد فى الدبية عام ١٨١٩ فى عهد امارة الامير بشير الشهابى الكبير فى جبل لبنان وظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء منذ نعومة اظفاره فاخذ فى تلقى مبادىء العربية والسريانية على المرحوم الخورى مخائيل البستانى . وكان المطران عبد الله البستانى اذ ذاك مطرانا على صور وصيدا وكان يقيم فى بيت الدين فنمى اليه أن هذا الغلام وغلاما آخر يدعى شبلى بن الخورى يوسف البستانى (المطران بطرس البستانى بعدئذ) قد تفردا بالذكاء والفطنة والاجتهاد بين اقرانهما فاستقدمهما اليه ثم

بعث بهما الى مدرسة عين ورقة بلبنـــان فقضـــيا فيها عشر سنوات حتى اتقنا آداب اللغة العربية مما تيسر الحصـــول عليــه اذ ذاك كقواعد اللغــة والمنطق والتــاريخ والحســاب والجغرافيا وتناولا اللغات السريانيــة واللاتينية والايطاليــة وتلقيا الفلســـفة واللاهوت الادبى والنظرى ومبــادىء الحق القانونى

وكان صاحب الترجمة قد بلغ العشرين من سنه فاراد غبطة بطريرك الطائفة المارونية اذ ذاك ارساله مع رفيقه الى رومية للتبحر فى العلوم الدينية وكان والده قد توفى فعارضت والدته فى ابعاده فتعين مدرسا فى مدرسة عين ورقة مشمولا بانظار البطريرك وكان البطريرك يعهد اليه قضاء بعض المصالح الى سنة ١٨٤٠ وكانت حال الجبل فى اضطراب لمـا كان فى نفس الدولة العلية على الامير بشير وابراهيم باشا . وكانت الدول الافرنجية قد بعثت مراكبها الى سواحل سوريا كى تعين الباب العالى على اخراج ابراهيم باشــا منها . وكان صاحب الترجمة قد درس اللغة الانجليزية فى بيروت اثنــاء اقامتــه بمدرسة عين ورقة وبعدها فاستخدمه الانجليز للترجمة . وكان دعاة المذهب الانجيلى من الاميركان قد اخذوا فى الاقامة ببيروت للتعليم ونشر مذاهبهم فتعرف الى بعضهم وجعــل يختلف اليهم يعلمهم اللغة العربية ويعــرب لهم بعض الكتب حتى تمكنت علائق المودة بينه وبينهم ووافقهم على مذهبهم

وفى سنة ١٨٤٦ عزم استاذنا الدكتور فان ديك على انشاء مدرسة عربية فاســتعان بصاحب الترجمة فى انشائها فتولى التعليم فيها عامين الف فى اثنائهما كتابا مطولا فى علم الحساب سماه « كشف الحجاب » طبع مرارا وذاع استعماله فى سائر مدارس سوريا

ثم قدم بيروت وتولى منصب الترجمة فى قنصلية امريكا مع مباشرة التأليف والترجمة والوعظ والخطابة ودرس فى اثناء



بطرس البستاني

ذلك أو قبيلة اللغتين العبرانية واليونانية . وكان الدكتور عالى سميث الأمريكانى قد باشر ترجمة التوراة الى العربية فاستعان بصاحب الترجمة على ترجمتها . ولكن الاجل عاجل الدكتور سميث فاتم الترجمة فان ديك وهى الترجمة الأمريكانية المشهورة . اما المعلم بطرس فانه شرع فى تأليف قاموسه « محيط المحيط »

وفى سنة ١٨٦٠ نشر نشرة سماها نفير سوريه وهى اول نشرة عربية ظهرت فى سوريا واذا جاز لنا ان نسميها جريدة فالبستانى اول من أنشأ جريدة عربية غير رسمية بين قراء اللغة العربية

وفى عام ١٨٦٣ انشأ فى بيروت مدرسة عالية سماها « المدرسة الوطنية » أسسها على الحرية الدينية ومبدأ الجامعة الوطنية العثمانية فتقاطر اليها الطلبة من سائر أنحاء الشام ومصر والاستانة وبلاد اليونان والعراق وغيرها فزاع صيتها فى الآفاق وظهر فضلها على رؤوس الاشهاد فانعم عليه السلطان بنيشان عال تنشيطا له ومكافأة لخدمته وقد تولى ولده سليم البستانى نيابة رئاسة المدرسة وكان متضلعا فى العلوم الحديثة فكان يدرس التاريخ والطبيعيات والصف الاول فى اللغة الانجليزية وكان والده رحمه الله يلقى على التلامذة الخطب والمواعظ مرتين فى الاسبوع



وفى سنة ١٨٦٩ فرغ من تأليف قاموسه « محيط المحيط » وقد اخذه عن أشهر متون اللغة ولا سيما الفيروز ابادى وصحاح الجوهرى ولكنه يمتاز عنها كلها بما يأتى (١) انه رتبه على حروف المعجم باعتبار الحرف الاول من الثلاثى المجرد (٢) جمع فيه كثيرا من الالفاظ العامية وفسرها بالالفاظ الفصحى (٣) انه اوضح كثيرا من أصول الاعجمية كان اصلها مجهولا او مهملا (٤) انه أدخل فيه كثيرا من المصطلحات التى

حدثت فى اللغة بحدوث العلوم الحديثة المنقولة عن اللغات الاعجمية فضلا عن بسط عبارتها وسهولتها . فجاء كتابا وافيا بغرض طلاب اللغة العربية تفهمه العامة وترضى به الخاصة طبعه فى مجلدين كبيرين واستخرج منه مختصرا سماه قطر المحيط اصغر منه حجما خصصه لتلامذة المدارس . فشاع استعمال الكتابين فى سائر انحاء سورية وغيرها . فلما تم طبعهما رفع نسخة من محيط المحيط الى الحضرة الشاهانية ونسخة الى الصدارة العظمى واخرى الى نظارة المعارف بالاستانة فوقع عمله هذا موقع الاستحسان فاجازته الحضرة السلطانية بالجائزة الاولى التى ينالها المؤلفون وهى مائتان وخمسون ليرة عثمانية وانعمت عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الثالثة

وفى أول عام سنة ١٨٧٠ انشأ مجلة علمية ادبية سياسية سماها الجنان وعهد بادارتها وانشائها فى بادىء الامر الى نجله سليم البستانى . وفى اواسط ذلك العام استعان بابنه سليم فى انشاء صحيفة سياسية سماها الجنة . فهى من اقدم الجرائد السياسية العربية ببلاد الشام . ثم أصدر جريدة الجنينة وتولى تحريرها ابن عمه سليمان افندى البستانى ناظم الالياذة . والجرائد الثلاث المشار اليها لا تصدر الآن

ووعد فى آخر قاموسه بتأليف قاموس للاعلام اى مشاهير الناس ولكنه راى بعدئذ أن يتوسع فى مشروعه هذا فعول على تأليف قاموس شامل لسائر العلوم على اختلاف مواضيعها وازمانها فشرع فيه عام ١٨٧٥ م يعاونه به ولده سليم وبعض الكتاب وسماه « دائرة المعارف » وهو كتاب فريد لم ينسج على منواله فى اللغة العربية . فأصدر منه رحمه الله ستة مجلدات وتوفى وهو فى بدء السابع فاتم السابع والثامن ابنه سليم ولكنه توفى قبل الشروع فى التاسع فأصدر ابناؤه الباقون الجزء التاسع بمعاضدة ابن عمهم سليمان افندى البستانى . ثم حالت موانع ادت الى ايقاف العمل فى بيروت ومضت على

ذلك بضع سنوات الى ان قدم القاهرة سليمان افندى المشار اليه واخذ فى اتمام الدائرة مع ابنى عمه نجيب افندى ونسيب افندى البستانى . فصدر الجزء العاشر ثم الحادى عشر

وكانت وفاته فى أول مايو سنة ١٨٨٣ فجأة بعلة فى القلب فطار خبر منعاه فى البلاد فاهتزت له انحاء سورية اذ بفقده فقد الوطن السورى ركنا من اقوى اركانه فى نهضته الاخيرة . فبكاه الاهل والاصدقاء وابنه الخطباء والعلماء ورثاه الكتاب والشعراء

مآثره وأعماله

نبغ البستانى فى لبنان والعلم لا يزال طفلا فى مهده فأخذ فى التعليم والتهذيب علما وعملا فألف الكتب وانشأ المدارس والجرائد فهو اول من انشأ مجلة علمية وجريدة سياسية ومدرسة وطنية واول من اقدم على المشروعات الادبية بعزم ثابت ، فألف الكتب وسهل طبعها ونشرها ، واشهر مؤلفاته : دائرة المعارف ، ومحيط المحيط ، وقطر المحيط ، وكشف الحجاب ، ومسك الدفاتر ، ومفتاح المصباح فى الصرف والنحو ، وكتب اخرى ورسائل عديدة للتثقيف والتهذيب فضلا عن ترجمة الكتب الدينية والادبية . وانشأ ثلاث جرائد الجنان والجنة والجنينة . ومن مشروعاته المدرسة الوطنية وقد راس مدرسة الاحد فى بيروت خمس عشرة سنة وترجم لها عدة رسائل دينية دعا فيها الى تربية الاولاد والامساك عن المسكرات . وسن قانونا للمدرسة الداوودية التى انشأها داود باشا . وكان كثير الحث على تعليم النساء وهو أول من خطب فى هذ الموضوع بالشرق وله خطب كثيرة تلاها على منابر بيروت وفى جمعياتها ومقالات جمة نشرها فى جرائده كلها فوائد

صفاته واخلاقه

كان ربعة ممتلىء الجسم سمينا قوى البنية ولولا ذلك

ما استطاع القيام بما عني به من المشروعات العقلية والادارية.
وكان حازما نشيطا لا يفتر عن التفكر فى مشروع يشرع فيه او عمل يعمله لخدمة وطنه . فاذا بدأ بعمل أكب عليه بكليتــه مواصلا العمل للقيام به وكانوا اذا افتقدوه ليلا او نهارا عثروا عليه فى مكتبه بين كتبة وأوراقه . وكان ثابت الجنان قادرا على الاعمال لا يأخذه ملل ولا ضجر مع ما يعترض المشروعات العلمية والادبية فى بلادنا من العقبــات ممــا يثبط العــزيمة ويضعف العزم وخصوصا فى أيامه . فقد نبغ فى عصر لم تتوفر فيه معدات الطبع والنشر ولا اعتاد فيه الناس مطالعة الجرائد والاقبال على المؤلفات . ومع ذلك فانه عمل أعمالا يقصر عن القيام بها عدة من الرجال الاقوياء فكان يؤلف ويعلم ويترجم ويدير أعماله ويكاتب عمــاله وأصدقاءه ويضبط حســاباته ويدير مدرسته علما وعمــلا ناهيك بمــا كان يقــوم به مــن المساعدات الادبية لمن يقصده من المستشيرين والمســتعينين فيقضي حاجاتهم ويحضر اجتماعات الجمعيات ويقدم الخطب والمواعظ . وهو مع ذلك يستقبل الزائرين بوجه باش فلا برجع أحدهم من بين يديه الا شاكرا حــامدا معجبا بلطفــه وغيرته

وكان مخلص الطوية دمث الاخــلاق لين العريكة صــادق النية محبا لوطنه ودولتــه كريم الخلق بعيــدا عن التعصب كارها للتملق والرياء . وكان سخيــا على المشروعات الادبيــة بسيط المعشر حسن المحاضرة يسترضي جليسه شابا كان أو شيخا ويخاطب كلا بما يناسب ذوقه وأخلاقه وكان يعتقد ان المصالح العامة أساس كل تقدم فيبذل جهده فى تأييدها متخذا الصدق شعارا والنشاط عمادا

وكان مع ذلك رفيع الجناب وقورا محترما لم يجالســه أحد الا خرج وفى نفسه انعطاف اليه وفى قلبه احترام له فكان حيثما ذكر اسمه قرن بالمدح والثناء والتجلة والوقار فنــال

مقاما رفيعا فى نفوس ذوى الوجاهة والمقامات الرفيعة وأهل الفضل على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم . وكان من أشدهم صداقة له استاذنا الدكتور «كرنيلوس فان ديك» فقد ساكنه وآكله وشاربه زمنا طويلا كانا معا اخوين متصافيين ونعم الاخوان . فلما توفى صاحب الترجمة رثاه الاستاذ بلسان الصديق وبكاه بدموع الاخ الشقيق ومما قاله وقد وقف لتأبينه فى الكنيسة :

« ان لم يكن لك فى نقد الرجال يد
انظر الى الموت كيف الموت ينتقد
يدور فى الارض حول الناس ملتمسا
كريم قوم ولا يرضى الذى يجد

« انى لمظلوم بوقوفى هنا اليوم خطيبا لان المقام الذى يليق بى وارغب فيه انما هو ان اقوم فى وسطكم باكيا نائحا على اخى وحبيبى الذى خطف من بيننا خطفا بل هو معلمى واستاذى ورفيقى فكم احيينا من الليالى معا فى الدرس والمطالعة والتأليف وحلاوة المعاشر الصادرة عن اتحاد المقاصد والاغراض فكيف اقف فوق جثته خطيبا ولا اركع بجانبه حزينا كئيبا »

ومما يدل على منزلته الرفيعة بين اهل الادب والفضل انه لما وقع القضاء ومات البستانى تسابق الخطباء والعلماء الى تأبينه ورثائه فملأت الجرائد أعمدتها رثاء وسودت صفحاتها حزنا ووقف الخطباء على ضريحه يرددون ذكراه ويذكرون مآثره وآثاره . وهاك ما قاله فى تأبينه المرحوم اديب اسحاق اذ وقف على قبره والناس وقوف خشوع وكنا فى جملة السامعين فانتصب الاديب رحمه الله وقد امتقع لونه وابتلت عيناه واخذ يقول :

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر   وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

«ان هذا المصاب مصاب جسيم . ان هذا الخطب خطب

عميم . انها لمصيبة وطنية يقل فى مثلها بذل الدموع انها لنائبة عمومية لايكثر فى نظيرها تمزيق الضلوع . أجل أن المصيبة فيك مصيبة الوطن يامن انفقت العمر فى خدمته مقداما مجتهدا صابرا متجلدا متعففا مستقيما . فلا بدع أن تبكيك العيون . ولا غرو أن تنفطر لفقدك القلوب . أو لم تكن فينا مثال الفضل والاجتهاد . ونموذج البراعة والادب . وعنوان التجلد والثبات فى خدمة العلم . بذلت فى هذه الخدمة شبابك ووقفت على هذا السبيل اتعابك . وجعلت العلم غايتك القصوى من دنياك . فكان لروحك روحا وكنت لذاته قواما

«فأى أثر أدبى رأيناه ولم تكن انت البادىء به والداعى اليه. واى مشروع مفيد شهدناه ولم تكن انت الشارع فيه أو المعين عليه . او لست اول من خط على صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان «حب الوطن من الايمان» واول من اقدم على المشروعات الجسيمة العلمية بهمة لاتخاف المصاعب والعقاب ولا تألف الا صدق العزيمة والثبات

« بأى آثارك لا تذكر . وبأيها اذا ذكرت لا تشكر . وأى عين ترى اعمال يديك . ولاتفيض دمعا بل دما حزنا عليك. وما الذى نذكره من آثار اجتهادك فى استمرار ارتيادك ولا نجده عظيما. أمواظبتك على خدمة العلم والادب اربعين عاما او تزيد . ام تآليفك وتصانيفك الغنية بشهرتها عن الوصف. أمحيط محيطك ام قطر محيطك . ام مدرستك الوطنية التى ملأت بها الوطن انوارا . ورفعت فيها للادب الصحيح منارا

احمد فارس الشدياق

١٢١٩ - ١٣٠٥ هـ الموافق ١٨٠٤ - ١٨٨٧ م

هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر شقيق بطرس الملقب بالشدياق من سلالة المقدم رعد بن المقدم خاطر الحصرونى المارونى الذى تولى جبل كسروان فى سوريا سبعا وثلاثين سنة فى أوائل القرن السابع عشر للميلاد

ولد فى عشقوت من أعمال لبنان سنة ١٨٠٤ م ثم انتقل والداه الى الحدث بلبنان سنة ١٨٠٩ فربى فيها وقد ظهرت عليه مخايل النجابة منذ نعومة أظفاره فتعلم القراءة فى مدرسة عين ورقة بلبنان وتناول شيئا من اللغة والنحو على يد اخيه اسعد . وبدأ ينظم الشعر وهو فى حدود العاشرة وكان فيه ميل غريزى لقراءة الكلام الفصيح والتبحر فى معانى الالفاظ الغريبة التى يعثر عليها فيما يقرأه من الكتب التى فى مكتبة والده لأن والده كان قد أحرز كتبا عديدة فى فنون مختلفة ثم توفى والده وهو صبى فأصبح يتيما فعلم انه يجب عليه ان يعتمد على نفسه فأتقن صناعة الخط وجعل ينسخ الكتب لنفسه أو لغيره بالاجر ولكنه لم ير فيها فائدة تذكر وكانت نفسه تحدثه من ذلك الحين بالاسفار والجد فى طلب العلى ولم يكن يرى فيما حوله ماينشطه على ذلك وينهض به من حضيض الفقر لقلة الوسائل واستبداد القوى بالضعيف

قلنا انه تلقى بعض العلم عن اخيه أسعد وكان أخوه هذا نابغة عصره ذكاء وفطنة فاتفق انه خلع مذهب والديه



احمد فارس الشدياق

وتمذهب بالمذهب الانجيلى فغضب عليه البطريرك وما زال يتهدده ويسومه العذاب ألوانا حتى يرجع عن رأيه فلم يزدد الا تمسكا واصرارا الى ان آل ذلك الى موته بدير قنوبين فى عنفوان شبابه شر موتة . ولايزال أهل سوريا ولبنان يتحدثون بقصته الى الآن . وكان صاحب الترجمة شديد التعلق بأخيه هذا فعظم عليه أمره حتى كره الاقامة فى بلاد الشام جملة فغادرها ناقما عليها وعلى الذين كانوا سببا فى موت اخيه أسعد وطلب الاغتراب فجاء الديار المصرية فى عهد محمد على باشا. وكان مجيئه اليها بصفة أستاذ للمرسلين الامريكان لتعليم اللغة العربية وقواعدها وأشياء أخرى . وقد أرسله لذلك المرسلون الامريكان ببيروت لانهم شعروا بأن موت اخيه اسعد انما كان دفاعا عن مذهبهم وكان أسعد مضطهدا من اكثر أعضاء عائلته الا جماعة منهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة فى الدفاع عنه خوفا من سطوة الحكام لأنهم كانوا موافقين للاكليروس بما أتوه بشأن المرحوم أسعد. اما فارس فانه لم يكن يكتم ما فى نفسه من استصواب عمل أخيه فأصبح فى خطر على حياته فحماه الامريكان ثم ارسلوه الى مصر كما قدمنا

ولبث فى مصر بين تعليم وتعلم حتى أتم دروسه فى العلوم العربية وغيرها وقد قرأ بعضها على الفاضلين نصرالله افندى الطرابلسى الحلبى والشيخ محمد شهاب الدين وطالع كتاب صحاح الجوهرى وديوان المتنبى وغيرهما من كتب اللغة والادب . وكان كثير الرغبة فى قراءة الشروح التى تبين مآخذ الكلام من اللغة شديد الولع بالشعر ونظمه فخاض عبابه حتى بلغ منه مبلغا عظيما ونظم شيئا كثيرا بين غزل وحماسة ومدح وهجاء وتمكن من سائر علوم اللغة كالنحو والصرف والاشتقاق والمنطق . وتقرب من خيرة علماء المصريين ومعية عزيز مصر حتى تولى كتابة الوقائع المصرية وكانت فى أول نشأتها تكتب باللغة التركية فقط فكتب فيها زمنا بالعربية

وتعرف فى مصر بعائلة الصـــولى من وجهاء الســـوريين فصاهرهم وولدت له امراته هذه ولدين هما فائز وسليم . اما الاول فتوفى بعد ذلك فى ضواحى لندن أثناء اقامته فيها كما سيجىء وبقى سليم وحيدا وهو سليم أفنـــدى فارس نزيل بلاد الانجليز

وفى سنة ١٨٣٤ سافر الى جزيرة مالطة واقام فيها زهاء اربع عشرة سنة يدرس فى مدارس المرسلين الامريكان وقد تولى تصحيح مايطبع فى مطبعتهم هنـــاك واخذ فى التأليف والتصنيف ولا يكاد يوجد كتاب مطبوع فى مطبعة مالطة الا كان هو مؤلفه أو مترجمه أو مصححه . ومن جملة ما الفه كتاب للتدريس وآخر سماه « الواسطة فى معرفة أحـــوال مالطة » لم يغادر شيئا عن تلك الجزيرة وســـكانها الا أبانه وانتقده فيه

وفى سنة ١٨٤٨ بعثت جمعية ترجمة التوراة فى لندن تطلبه من حاكم مالطة على يد وزير خارجيتها للمساعدة فى ترجمة التوراة الى العربية. وكانت هذه الجمعية قدعهدت بترجمتها الى الدكتور « لى » فبعثت الى صاحب الترجمة لتنقيحها وضبطها فســـار الى لندن ومر فى طريقه بمدن كثيرة من أوربا ثم عاد بعد انتهاء الترجمة الى باريس أقام فيها زمنا وقد كتب سياحته هذه فى كتاب سماه « كشف المخبأ فى أحوال أوربا » وصف تلك البلاد وصفا دقيقا بعبارة رقيقة تأخذ بمجامع القلوب لايمل القارىء من قراءتها فضـــلا عما يستفيده منها عن احوال امم أوربا وخصوصا لندن واخلاق أهلها وعلومهم وآثارهم وكل مايتعـــلق بهم . أما باريس فأوجز فى وصفها اعتمادا على ماكان قد كتبه عنها العـــلامة المرحوم رفاعة بك الطهطاوى . وقد طبع كشف المخبأ الطبعة الاولى فى تونس والثانية فى الاستانة ســـنة ١٢٩٩ هـ وهى مشهورة ومتداولة . والف اثناء سياحته هـــذه أيضا كتابا

سماه « الساق على الساق فيما هو الفارياق » والفارياق لفظ مقتطع من اسمه (فارس الشدياق) وسيأتى وصف هذا الكتاب عند الكلام عن مؤلفاته

قضى فى سياحته هذه بضع عشرة سنة متجولا فى أنحاء أوربا يتردد الى مالطة وهو لم يغير شيئا من لباسه التركى ولا بدل طربوشه على أنه أتقن أثناء ذلك أيضا اللغة الانجليزيه وتعلم الفرنسية وتزوج سيدة انجليزية لم تلد له أولادا ونال الجنسية الانجليزية بعد سعى لأنهم لم يكونوا يمنحونها الا لمن استحقها

واتفق فى أثناء ذلك أن أحمد باشا باى ولاية تونس اذذاك زار مدينة باريس وفرق على فقراء مرسيليا وباريس وغيرهما أموالا طائلة ثم رجع الى مقامه فنظم قصيدة يمتدحه بها وبعثها على يد من بلغها اليه فحازت حسن قبوله وفتن الباى بها حتى بعث اليه يستقدمه على سفينة حربية وقد عجب صاحب الترجمة لتلك الدعوة وذلك الاكرام وقال : « لعمرى ماكنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقا ينفق فيها ولكن اذا أراد الله بعبد خيرا لم يعقه عنه الشعر ولا غيره » فجاء تونس وأقام فيها مدة على الرحب والسعة وحرر فى جريدة الرائد التونسى وهى جريدتهم الرسمية الى الآن

وكان فى أثناء اقامته بباريس قد نظم قصيدة امتدح بها السلطان عبد المجيد على اثر الحرب بين الدولة العلية والروسية وبعث بها على يد سفير الدولة العلية بباريس والقصيدة تزيد أبياتها على المائة والثلاثين نكتفى منها بما يأتى مثالا لما جادت به قريحة المترجم من النظم

قال فى مطلعها :

الحق يعلو والصلاح يعمر والزور يمحق والفساد يدمر

ومنها :

يامؤمنون هو الجهاد فبادروا　　متطوعين اليه حتى تؤجروا

ومنها :

فى لن تنالوا البر حتى تنفقوا　　مما تحبون الدليل الاظهر
وتمسكوا بالعروة الوثقى من الصـ　　ـبر الجميل على القتال وذمروا
يغنيكم التكبير والتهليل عن　　أن تعملوا فيهم سلاحا يبتر

ومنها :

لو لم يكن منكم سوى نفر لما　　غلبوا فكيف بكم وانتم أكثر

ومنها :

أنتم عباد الله حقا فاعبدوا　　للدين فهو بكم يعز ويجبر

وقال فى ختامها :

حرس الاله جنابك الاعلى ولا　　زالت عبادك فى حماه تخفر
وأدام دولتك العلية ماسرى　　نجم ومازخرت كجودك ابحر
أنشدت تاريخين هجريين فى　　ختمى مدحك وهو حظى الاوفر
عبد المجيد الله أزكى ضده　　سلطاننا خير بجد ينصر
« ١٢٧٠ »　　« ١٢٧٠ »

وكان لهذه القصيدة وقع حسن لدى السلطان فورد عليه بسببها ايعاز بالقدوم الى الاستانة لمكافأته وكان قد هم بالمسير فحبب اليه بعض الصدور العظام الاقامة فى تونس فسار اليها كما تقدم . ووجه اليه الباى أحسن منصب لديه وهناك اعتنق الديانة الاسلامية على يد شيخ الاسلام وسمى أحمد ، فصار اسمه أحمد فارس الشدياق. وأخذ صيته ينتشر فى سائر الانحاء الاسلامية وخصوصا الاستانة العلية فطلبته « الصدارة العظمى » من الباى فقدم الى الاستانة وتولى تصحيح الطباعة بضع سنوات

وفى سنة ١٢٧٧ هـ أنشأ جريدة الجوانب الشهيرة فى الاستانة واجاد فى انشائها وسبكها فولع الناس بمطالعتها

وذاع صيتها فى الآفاق الشرقية فبلغت الهند وفارس والعراق وسائر بلاد العرب ومصر والشام والمغرب واجاد فى اتقانها حتى لم يغادر أسلوبا من أساليب الكتابة لم يطرقه بين لغة وسياسة ومدح ورثاء وجد وهزل ولوم وعتاب وحزن وطرب وسائر فنون الادب فضلا عن القصائد الرنانة والمقالات العديدة فى العلم والاخلاق كما تراه محفوظا فى « منتخبات الجوائب »

ولم تنحصر منزلة الجوائب فى المشرق ولكنها دخلت المغرب حتى كانت جرائد باريس ولندن تأتى بذكرها وذكر محررها فى الكلام عن سياسة الشرق مستشهدة بأقواله وكانت تلقبه بالسياسي الشهير والاخبارى الطائر الصيت . وقد خاطبه الملوك والامراء والعظماء فى سائر أقطار العالم ووجدوا بين اوراقه بعد وفاته مئات من الكتب واردة عليه من عظماء العالم وملوكهم

وقد نال رضاء السلطان فأنعم عليه بالرتب والنياشين ونال مثل ذلك أيضا من الدول الاخرى

وما زال عاملا على التأليف والتحرير الى اواخر أيامه فعهد بتحرير الجوائب الى ولده سليم أفندى فارس فقام بذلك خير قيام الى أن قضت الحوادث بعطلتها سنة ١٨٨٤ على أثر الحوادث السودانية فى الديار المصرية

وفى سنة ١٨٨٦ قدم صاحب الترجمة الى هذه الديار وقد شاخ وهرم واتيح لنا مشاهدته وقد علاه الكبر واحدق بحدقتيه قوس الاشياخ واحدودب ظهره ولكنه لم يفقد شيئا من الانتباه أو الذكاء وكان الى آخر أيامه حلو الحديث طلى العبارة رقيق الجانب مع ميل الى المجون

وقد لاقى اثناء اقامته بمصر هذه المرة حسن الوفادة فزاره الوزراء والعظماء

ثم عاد الى الاستانة العلية واقام هناك حتى وافته المنية

وقد شبع من الايام فتوفى فى مصيفه بقاضي‌كوى وكان‌لوفاته فى الاستانة رنة ودوى فرثاه الكبراء والعظماء وبعث السلطان الشيخ محمد ظافر افندى لحضور الاحتفال ونقلت جثتـــه الى سوريا عملا بوصايته قبل وفاته ودفنت فى سفح لبنان فى محلة الحازمية قرب مدينة بيروت

وكان لتشييع جنازته فى بيروت احتفال شائق مشى فيه كبار المأمورين واعيان البـــلاد وعلماؤها وافاضـــلها الى ان واروه التراب واستمطروا عليه طيب الرحمة والرضوان

وكان رحمه الله ربع القامة كبير الانف واسع العينين مع بروز وحدة . وكان طلى الحديث مع ميل الى المجون وترى هذه الصفة واضحة كل الوضوح فيما كتبه فان من يطالع كتبه يتحقق ذلك فيها

وقد رثته الجرائد على اختـــلاف لغاتها ونزعاتها وأبنـــه العلماء والامراء ورثاه الشعراء فى سائر أنحاء المملكة العثمانية وخصوصا فى مصر وسوريا . وقد عنى بجمع تلك المراثى من نظم ونثر حضرة يوسف أفندى آصاف صاحب جريدة المحاكم وطبعها فى مطبعة المحروســـة فى كتاب سماه « هو الباقى » وقد علمنا انه وردت كتابات اخرى فى رثائه بعد أن طبع المجموعة

مؤلفاته

ويجمل بنا قبل الشروع فى وصف مؤلفاته ان نصف قلمه اى أن ننظر فى مؤلفاته نظرة عامة ونذكر ما اختص به من اوصاف الكتاب فنقول :

امتاز المترجم باتقان فنى النظم والنثر والاجادة فى كليهما فتراه اذا نظم أو نثر انما يفعل ذلك عن سعة وارتياح كأنه وعى الفاظ اللغة فى صدره واخذ عليها عهدا ان تأتيه صاغرة حالما يحتاج اليها فاذا خطر له معنى سبكه فى قالب من اللفظ

لائق به بغير أن يتكلف فى ذلك مشـــقة او ترددا . فترى كتاباته طلية طبيعية ليس فيها شيء من التكلف أو التقعر على كونها بليغة فصيحة والسبب فى ذلك حدة ذهنه وقوة ذاكرته وسعة اطلاعه وكثرة محفوظه مع حرية قلمه . وكان يطلق لقلمه العنان غير محاذر وأظنه السبب فيما نراه فى بعض مؤلفاته من المجون الذى تنفر منه طباعنا وتمجه أذواقنا . على ان المجون اذا لم يتجاوز حده كان أحماضـــا أو هو بمثابة الملح للطعام وذلك كثير فى كتابات المترجم مما يرغب المطالع فى المطالعة فلا يمل منها وان طالت

ومن خصائص كتابة الشيخ احمـــد فارس السلاســـة وارتباط المعانى بعضها ببعض واتساقها مع التوسع فى التعبير وتتبع الموضوع الى جزئياته مع مراعاة الموضـــوع الاصلى والعود اليه وترى ذلك واضحا فى كتابه كشف المخبـــأ فاذا أراد وصف عادة من عادات أهل باريس مثلا فانه يتطرق منها الى مايماثلهـــا من عادات العرب أو الاتراك فيذكر وجـــه الخطأ هنا أو هناك وما هو سبب هـــذه العادة وربما جاء بتاريخها ومن جاء بها حتى يخال لك انه خرج عن الموضوع ثم لاتشعر الا وقد عاد بك اليـــه بغير تكلف . وكل ذلك بغاية السلاسة والطلاوة مع البلاغة . وترى فى مؤلفـــاته كثيرا من الالفاظ العربية جاء بها للتعبـــير عن معان حديثة أفرنجية لم تكن عند العرب وهى فى الغالب تدل على حسن اختياره

ومن الادلة على اقتداره فى التعبير انه مغال فاذا مدح بلغ ممدوحه عنـــان السـمـــاء ، واذا هجا أنزل مهجوه دركات الجحيم . وترى كتاباته على بلاغتها وحسن سبكها تتجلى فيها البساطة والسهولة كأن كاتبها كان يكتب كل مايمر بذهنه على غير تكلف أو مراعاة لخطة الكتاب قبله وهو استقلال فى الرأى واعتماد على النفس . فمن ذلك فى بداية فصل يصف

به مصر فى كتاب الفارياق قوله : « قد قمت حـــامدا لله شاكرا فأين القلم والدواة حتى أصف هذه المدينة السعيدة الجديرة بالمدح الخ » وفى هذا الاسلوب من الطلاوة ما لايخفى ولـكل مقام مقال

فلنشرع اذا فى وصف مؤلفاته :

(١) سر الليـــال فى القلب والابدال : وهو كتاب لغوى تحليلى كتبه فى الاستانة العلية لمقصدين .. أولا : لسرد الافعال والاسماء التى هى أكثر تداولا وأشهر اســـتعمالا وتنسيقها بالنظر الى التلفظ بها لايضـــاح تناسبها وابداء تجانسها وكشف أسرار معانيها وأصـــل مدلولاتها . ثانيا : استدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ أو مثـــل أو ايضاح عبارة أو نسق مادة . والـكتاب يشتمل على نحو ستمائة صفحة بقطع كبير طبع بالاستانة سنة ١٢٨٤ هـ

(٢) الساق على الساق فيما هو الفارياق : وقد تقدم ذكر هذا الكتاب فى ترجمة حياته وهو كبير الحجم يشتمل على نحو ثمانمائة صفحة كبيرة كتبه أثناء ســـياحته فى أوربا . ويظهر لمن طالعه أن مؤلفه أراد به ثلاثة أمور . الاول : وصف أسفاره واحواله الخصوصية وما قاساه فى أوائل حيـــاته . والثانى : التنديد بجماعة من الاكليروس لم يذكر اسماءهم الا رمزا وتقبيح ما ارتكبوه فى مقتل اخيه اسعد . واما الامر الثالث : وهو الاهم فهو ايراد الالفاظ المترادفة فى اللغة فى مجموعات كل موضوع على حدة كأســـماء الآلات والادوات وأصنـــاف المأكول والمشروب والمشموع والمفروش والمركوب والحلى والجواهر وأوصاف الرجال والنســـاء وغير ذلك مما لايتيسر وجوده فى كتاب واحد وعلى اسلوب لم نشاهد مثله فى العربية

على اننا لا نستطيع الانتقال من وصـــف كتاب الفارياق قبل الاشارة الى أمر وددنا لو كفانا رحمه الله مؤونة النظر

فيه ، وذلك انه أورد فى ذلك الكتاب الفاظا وعبارات أراد بها المجون ولكنها تجاوزت حدوده حتى لايتلوها اديب الا ود لو انها لم تمر فى ذهن شـــيخنا ولا دونها فى كتابه تنزيها لأقلام الكتاب عما يخجل من قراءته الشاب فضلا عن العذراء . وقد طبع الفارياق فى باريس سنة ١٢٧٠ هـ

(٣) الجاسوس على القاموس : الفه فى الاستانة ينتقد فيه معجم القاموس المحيط للفيروزابادى وهو يشتمل على مقدمة واربعة وعشرين نقدا . أما المقـــدمة فهى ملاحظات كثيرة لغوية من جملتها ترتيب الافعال بحسب ما نسقه الكوفيون ثم ترجمة صـــاحب القاموس وصـــاحب العباب وصاحب الصحاح وصاحب المحكم وصاحب لســـان العرب وهم من فطاحل علماء اللغة . أما الاربعة والعشرون نقدا فهى انتقاده ما ورد فى القاموس من عبـــارته وخطته ومعانى الفـــاظه واشتقاقها وما شاكل ذلك . وعدد صفحات الـكتاب زهاء سبعمائة صفحة

(٤) كشف المخبا عن فنون أوربا : وهو سياحته فى أوربا وصف فيه عوائد أهل اوربا وخصوصا الانجليز والفرنسيين ومتاحف لنـــدن وباريس وآثارهما وقد قال انه اختصر فى وصف باريس لأن المرحوم رفاعة بك قد سبقه الى وصفها مطولا وقد طبع هذا الكتاب غير مرة

(٥) الواسطة فى أحوال مالطة : وفيه وصف جزيرة مالطة جغرافيا وتاريخيا ومدنيا وعوائد اهلها واخـــلاقهم ولغاتهم وكل مايتعلق بهم

(٦) اللفيف فى كل معنى طريف : جمع فيه كلمات مفيدة وحكما مأثورة وامثالا أدبية وحكايات تهذيبية ونكاتا لغوية

(٧) غنية الطالب ومنية الراغب : وهو كتاب مدرسى فى علم الصرف والنحو

(٨) الباكورة الشـــهية فى نحو اللغة الانجليزية وتليهـــا

المحاورة الانسية فى اللغتين العربية والانجليزية : وهو كتاب مدرسى لتعليم اللغة الانجليزية

(٩) السـند الراوى فى الصرف الفرنساوى : وهو كتاب لتعليم اللغة الفرنسية

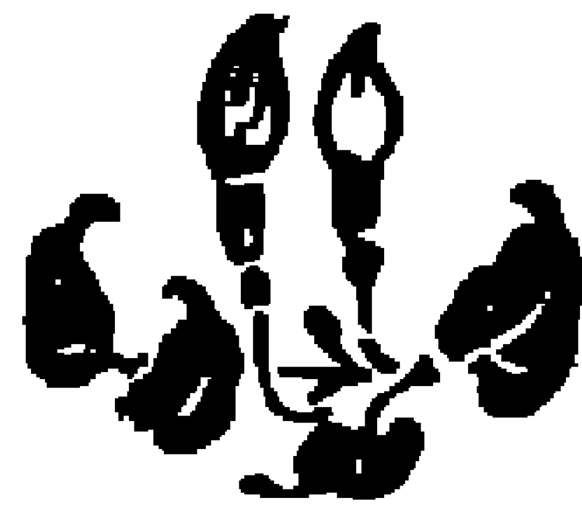
هذا عدا جريدة الجوائب التى حررها زهاء ثلاثين سنة وقد تقدم ذكرها فى ترجمة حاله وجمع نجله سليم أفندى فارس نخبا منها فى كتب سماها منتخبات الجوائب

وهناك كتب الفها ولم تطبـع ، منها كتاب النفائس فى انشاء أحمد فارس والتقنيع فى علم البديع والروض الناضر فى ابيات ونوادر وتليه رسـائل ومحررات أدبية . وديوان شعرى من نظمه يشتمل على اثنين وعشرين ألف بيت

وقد ألف كتابا مطولا فى اللغة سماه « منتهى العجب فى خصائص لغة العرب » قضى فى تأليفه سنين عديدة نحا فيه نحوا حديثا لم يسبقه اليه غيره على أسلوبه وقد أسهب فيه حتى بلغ مجلدات كثيرة وموضـوعه البحث فى خصائص الحروف الهجائية العربية مثال ذلك قوله : « انمن خصائص حرف الحاء السعة والانبساط أى ان الالفـاظ التى تنتهى بحرف الحاء يكون فى معناها شىء من خصائص هـذا الحرف نحو الابتحاح والبندح والبراح والابطح والابلنداح والرحرح والمسفوح والمفرطح والمسطح وما شاكل . ومن خصـائص حرفالدال اللين والنعومة والغضاضة نحو البرخداة والتيـد والثأد والخود والرادة والرهادة والفرهد والاملود والقشدة والملد وغيرها . ومن خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر نحو ارم وترم وجزم وجلم وخسم وحطم وماجرى مجراها وقس عليها . ولو نظرنا فيما أورده من الامثـال لرأينا منه تساهلا فى تطبيقها على ما اراده على اننـا لاننكر ماكان يرجى منه من الفوائد الجزيلة لو طبع الكتاب ونشر

ولكنه فقد حرقا على أثر حريق أصاب منزله فى الاستانة فأسف هو لذلك أسفا شديدا . واخبرنا صديق أنه راى بين اوراق الشيخ احمد فارس تأليفا فى تراجم مشاهير العصر لم يطبع . وربما كان له مؤلفات اخرى لم نقف على خبرها

وما لايليق بنا الاغضاء عنه أن مطبعة الجوائب طبعت كتبا عربية كثيرة كانت نادرة الوجود فأحيتها ونشرتها بين المتكلمين بالعربية وسهلت تناولها وهى مأثرة حسنة تضاف الى مآثره الاخرى



عبده الحمولى

١٢٦١ - ١٣١٩ هـ الموافق ١٨٤٥ - ١٩٠١ م

ان الامة شديدة التعلق بموسيقييها وشعرآئها وخطبائها ومن جرى مجراهم من رجال الادب ممن يشاركون الناس فى احساسهم . فالشعراء يصورون عواطف الامة ويدافعون عنها . والخطباء يحركون حاستها ويجمعون كلمتها . والموسيقيون ومنهم المغنون يطربونها ويشرحون صدورها . ويشتد شعور الامة بفضل أولئك الرجال ويتعاظم أسفها على ضياعهم بنسبة مبلغها من التقدم فى معارج المدنية

نعم ان الامة اذا تمدنت عرفت قدر مخترعيها وعلمائها وفلاسفتها وساستها وغيرهم من رجالها العظماء فتنحت لهم التماثيل وتقيم لهم الانصاب وتؤلف الكتب فى الثناء عليهم . ولكنها تفعل ذلك مدفوعة باقرارها بالجميل . وأما الشعراء والموسيقيون والخطباء فانها تشعر بفقدانهم شعور الصديق بموت صديقه أو الوالدة بضياع ولدها . فتبكيهم بلا كلفة ولا صناعة والفيلسوف أستاذ الامة وحكيمها والمخترع ساعدها وخادمها فى تسهيل أعمالها - وأما الشاعر فانه يترجم عواطفها ويصور ارادتها . والموسيقى ينفس كربها وينعش روحها ، والخطيب ينهض همتها ويجمع كلمتها ، ففى موت أحدهم تأثير على النفس يثير العواطف ويهيج الشجون وفى حياته حياتها الادبية ، والأمم المتمدنة تكون آدابها كما يشاء شعراؤها وخطباؤها وموسيقيوها - فلا غرو اذا جن الناس بأهل تلك القرائح ..

الا ترى مافعل الفرنسيون بفيكتور هيجو شاعرهم وكاتبهم وقد عشقوه حتى كادوا يعبدونه فحملوه على أكفهم وهو حي وطافوا به الشوارع والازقة ينادون بفضله وقس على ذلك ماتبديه الامم المتمدنة من أمثال ماتقدم

على أن اكرام الشعراء طبيعي حتى فى عصور البداوة . فقد كان الشعراء فى جاهلية العرب حماة الاعراض تتفاخر بهم القبائل وتستحث قرائحهم فى الدفاع عنها

ويسرنا أن نرى ذلك الشعور قد أينع فى وادى النيل فى أواخر القرن الماضي على أثر مابلغته مصر من الارتقاء

فقد أنبأنا صديق نثق بصدق روايته ان جماعة من أدباء المصريين في بعض مدن الصعيد لما بلغهم نعى الشاعر المرحوم الشيخ نجيب الحداد وكانوا من قراء أشعاره ورواياته لم يكتفوا بالبكاء والرثاء ساعة الفاجعة ولكنهم تحالفوا على ندبه فى كل حين ـ قال الراوى : « واشتد بهم الاسف حتى تواطأوا على ترك الدنيا والاسراف فى صحتهم حتى يلحقوا به» ومهما يكن من بعد هذا القول عن الحكمة والتعقل مع مايتخلله من دلائل الطيش فانه يدل على درجة اشتراك عواطف الامة بشعرائها

والموسيقى أخت الشعر وتأثيرها أعم من تأثيره لان الشعر لايؤثر الا على الذين يفهمونه ولا يستطيع ذلك غير الادباء المتعلمين . وأما الموسيقى فيفهمها ويتأثر منها كل ذي نسمة حية حتى الحيوان الى أدنى طبقاته . فالموسيقى ومن فى معناه كالمغنى والمنشد يشارك الامة فى احساسها بل هو يتلاعب بعواطفها كما يشاء . ويغلب ان يدعو الى انشراح الصدور وزوال الهموم . ومصر أكثر بلاد الارض حاجة الى دواعى الافراح لان أقليمها حار يورث الخمول ويضيق الصدر . وبقاعها متشابهة لاجبال فيها تشرح الصدر بمناظرها ولابحار واسعة يسرح فيها البصر ولا غير ذلك من المناظر الطبيعية . فلا يجد المرء فرجا من ضيقه الا بالمجالسة والمحادثة وما يلحق



عبده الحمولى

بذلك من المسامرة والمنادمة والغناء وضرب الآلات ونحو ذلك من بواعث الطرب وبالانتخـــاب الطبيعى انطبع المصرى على لطف الحديث وأصبح شـــديد التأثر من الحان الغناء . فلا غرو والحالة هذه اذا أسف المصريون على عبده الحمولى وهو بلبل أفراحهم بل هو أعظم مغن عربى فى العالم اليوم . وما من بلد فى وادى النيل لم يسمع أهله غناء «سى عبده» ناهيك بما بلغ من شهرته فى أقطار العالم الشرقى . ذلك ما حدا بنا الى نشر ترجمة حياته وجل اعتمادنا فى ذلك على ماكتبه صديقه ابراهيم المويلحى محرر مصباح الشرق قال :

ترجمة حياته

ولد بمدينة طنطا وكان ابوه يمارس تجارة البن وكان للمرحوم اخ أكبر منه فوقع شقاق بين أخيه وأبيه ففر به أخوه من وجه أبيه هائما به فى الخلوات ، وكان كلما تعب المرحوم عبده من السير لصغر سنه حمله أخوه على كتفه . حتى دنا الغروب وهما على آخر رمق من الجوع والعطش وتعب السير لايجدان أحدا يأنسان به أو يلجآن اليه . الى أن سخر الله لهما رجلا آواهما وسد رمقهما فى ليلتهما ثم أقاما عنده أياما . ومن غريب الاتفاق أن الرجل كان يشتغل بصناعة الغناء ويضرب الآلة المعروفة بالقانون فى طنطا فسمع صوت المرحوم فى بعض روحاته وغدواته فأعجبه فعاد به الى طنطا واشتغل معه هناك مدة وجيزة وقد بقى تأثير تلك الوحشة والانفراد مع التعب والجوع فى تلك الليلة التى خرج فيها المرحوم من بيت أبيه مرسوما فى رأسه فكنت تراه فى آخر عمره ينقبض صدره ويتقطب وجهه كلما آن الغروب . وطالما قص هذه القصة على خلصائه ممن كانوا يعجبون لانقلابه الفجائى من السرور الى الانقباض فى ذلك الميعاد . .

ثم رأى ذلك الرجل الذى آواه عنده واسمه المعلم شعبان

أن يحضر به الى مصر فاشتغل معه فى قهوة معروفة فى ذلك العهد بقهوة عثمان أغا فى غابة أشجار كانت موضع حديقة الازبكية فاتسع به رزقه وخاف أن يخرج من يده ويستميله غيره من أهل هذه الصناعة فيضيع عليه رزقه فرأى أن يربطه به بعقد زواجه من ابنته فاستذله وأسره وانقلب يعامله أسوأ المعاملة . وكان فى مصر رجل طائر الصيت فى فن الغناء اسمه «المقدم» أعجب بالمرحوم فسعى جهده ليلحقه به ويشتغل معه فى «تخته» حتى وصل الى غرضه وجذب المرحوم اليه وفصل بينه وبين زوجته قطعا لعلاقته بصاحبه وأنقذه مما كان فيه واستمر معه يغنى على الطريقة التى كانت معروفة عند المصريين فى ذلك العهد ..

تاريخ الغناء بمصر

واصل طريقة الغناء بمصر على مايعلم من تاريخ وضعها أن رجلا من أهالى حلب اسمه شاكر افندى وفد الى القطر المصرى فى المائة الاولى بعد الالف وكان فن الالحان فيه مجهولا . فنقل اليه جملة تواشيح وقدود وكانت هى البقية الباقية من التلاحين التى ورثها أهالى حلب عن أهل الدولة العربية فتلقاها عنه بعضهم وصارت عندهم ذخيرة نفيسة يضنون بها على الغير . واشتد حرصهم عليها وصار الواقفون عليها يحرمون الناس من تلقينها. وبقيت بينهم على بساطتها الاصلية يتصرفون فيها بدون الشد والتصوير . فكانت قاصرة على أمهات المقامات وبعض الفروع المقاربة لها وكانت بالنسبة للغناء مثل حروف الهجاء بالنسبة للكلام ..

وأقام المغنون فى مصر على هذه الطريقة البسيطة لايتصرفون فيها الى عصر عبده الحمولى فتلقاها المرحوم منهم على أصلها وغنى بها مدة ثم دفعته سجيته فى الطرب وحسن ذوقه فى الغناء ان يتصرف فيها مع المحافظة على الاصل وعدم الخروج عن دائرته فأزال عنهـــا بعض الجفـــوة . وما زال يرتقى

المرحوم فى شـــهرته بحسن الغناء حتى الحقه اسماعيل باشا بمعيته فسافر معه الىالاستانة مرارا وسمع هناكآلاتالموسيقى التركية . وجلب اسماعيل باشا فى عودته الى مصر جماعة من اكابر المغنين فيها ، فكان المرحوم يحضر معهم دائما فى اشتغالهم بالغناء . فاستمالته الحانهم واخذ ينتقى منها مايلائم المـــزاج المصرى ويناسب الطريقة العربية ورأى المجال واسعا له فى الموسيقى التركية اذ وجد فيها كثيرا من النغمات التى لم يكن للمصريين علم بها ولم تطرق آذانهم من قبل مثل النهـــاوند والحجاز كار والعجم وغيرها فنقلها الى الغنـــاء المصرى . ثم التفت الى بقية مصطلحات الغناء فى الطبقات المختلفة من ذلك العصر مثل المنشدين المشهورين بأولاد الليالى «الفقهاء»والعوالم «القيان» والمداحين «الضـــاربين بالدفوف» والتقـــط منهم ما استنسبـــه فأضافه مع المختار من الغناء التركى وخلطـــه بالطريقة القديمة فجعلها طريقة جديدة خاصة به . وظهر فى مصر وفيها شيوخ المغنين فصار شيخا عليهم . وقد دعاهم جهلهم بما صنعه الى استنكار طريقته فى أول الامر ولكن ما لبث الناس أن ذاقوا حلاوتها وطلاوتها فعم استحسانها. وذهباستنكارهم وانتصر بحسنها عليهم وله فيها من التلاحين اشياء كثيرة

مزاياه

ومن مزاياه فى صناعته انه كان شديد الطرب لايقل طربه فى اثناء تأديته للغناء عن طرب السامع له . وهو اول مغن مصرى اهتدى الى حسن الاداء واستصحاب حركة الغناء بالاشارات التى تقوم مقام الحكاية . وكان شديد الحفظ لما يسمعه مجتهدا دائما فى استخراج محاسن المسموع وطرح معايبه ذا قدرة على أن يبدل القبيح فيه بالحسن . وكان ذهنه شـــديد التعلق بالنغم فلا يكاد ينساه وربما نام وهو على «التخت» فى اثناء الغناء ثم يستيقظ فيرجع الى الغناء كما كان فيه من غيرمراجعة آلة او استرشاد بأحد ممن معه كأنما كانت الطبقة رسخت فى

ذهنه فلم تشوش عليها الاصوات التى مرت عليه وهو فى نومه ولم تؤثر عليه الغيبوبة فى شيء . وكان لطيف التنقل يوهم السامع فى غنائه بأن مراده ما هو فيه حتى اذا رسخ ذلك فى ذهنه انتقل منه الى مقام آخر يدهش السامع ثم يتدرج حتى يعود الى ما كان عليه وذلك من أعظم المزايا واكبر الفضل فى هذا الفن ..

وجملة القول فى باب الغناء ان المرحوم جدد فيه وابدع واحياه فى مصر بعد أن كان شيئا خاملا . ثم تمكن فيه من التوفيق بين المزاجين التركى والمصرى ، فبعد أن كان أهل الطبقة الحاكمة فى المصريين من الاصل التركى لايطربون للغناء المصرى ولا يلتفتون اليه أصبحوا بفضل المرحوم وبما وفقه فيه من الانغام التركية مقبولا عندهم مفضلا لديهم . وبعد أن كان المصريون لايطربون من الغناء التركى ولا يروقهم غير طريقتهم طريقة التوجع والانين اصبحوا يطربون لما يلائمهم من الانغام التركية التى انعش بها طريقتهم القديمة . فهو الجدير بأن يسمى فى مصر معدل المزاجين بين الامتين . وكما امتزج الجنسان فى الاجسام بالانساب فقد مزج بينهما عبده بالغناء فى الارواح . وكفاه فخرا أنه لم يصل أحد من قبله ولن يصل من بعده الى مثل ما وصل اليه من هذا الابتداع والاختراع الذى اهتدى اليه بما ميزه الله به من لطف الذوق وشدة الذكاء وحدة الطرب ومحبة الاتقان والترقى فى درجات الكمال

اخلاقه

وكان كبير النفس عالى الهمة يحاول الارتفاع عن طبقته ويسعى فى الخروج منها مقتصرا على الاشتغال بالفن لذاته لجهل الناس فى جيلهم الماضى بعلو قدر هذا الفن وغفلتهم عن جلال منزلته بين الفنون . وقد عمد المرحوم الى ذلك بالفعل فى أيام الخديو اسماعيل باشا فترك مزاولة صناعته بالاجرة بين الناس

وخرج من زمرة المغنين الى زمرة التجار غير طامع فى الذهب الذى كان يسيل من حياله بممارسة صناعته فى تلك الاوقات . فافتتح محلا لتجارة الاقمشة واشترك فيه مع بعض التجار بمبلغ عشرين الف جنيه فما مضى عليها عشرون شهرا الا وانتهت به سلامة نيته وحسن ثقته أن خرج منها صفر اليدين مدينا للشريك دائنا للناس يمنعه الخجل ويحجبه الحياء عن طلب الوفاء . ولم يمتنع فى أثناء ذلك عن الغناء بين الناس بل امتنع عن طلب الاجر عليه . الى أن عادت به حاجه العيش الى مزاولة صناعته كما كان فى أول أمره . ولم يزل يتطلع الى غرضه فى الانقطاع عنها كما فعل ودهره يحول دونه فلم يستطع بلوغه الى آخر مدته

بينه وبين اسماعيل

وكان شهما غيورا شريف السيرة يغار لنفسه ولاعراض الناس لايبالى فى ذلك بهول المواقف وفداحة الخطوب . أمر الخديو اسماعيل باشا ذات ليلة باحضار المرحومة ألمز لتغنى فى بعض قصوره وهو فى عزة سلطانه وشدة بطشه لايعصى له الناس أمرا ولا يخالف هواه الا من ارتضى لنفسه سكنى القبور . ولا يحلم أحد فى منامه أن يقف موقف المعارض فى رغبته أو الممانع لاشارته . فتوقف المرحوم عبده وكان قد تزوج بها بعد أن منعها عن ممارسة الغناء وأبى أن تخرج من بيته . فعاوده الطلب بالتشديد فاستمر على ابائه الى أن وصل الامر الى استعمال القوة . فأرسل مأمور الضابطة بعض أعوانه الى منزله وارادوا اخراجها منه بالقوة . فوقف أمامهم وقفة الليث يحمى أشبال العرين . وفضل الموت أو النفى على ان تغنى المرحومة لحنا واحدا لاحد وهى فى عصمته

ولما لم يفده موقفه أمام القوة بفائدة استمهلهم برهة ريثما يعود اليهم . فدخل البيت وألقى بنفسه الى حائط الجار وخرج منها الى الطريق لاجئا الى صديقه المرحوم الشيخ على

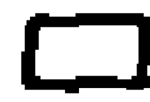
الليثى فكاشفه بما هو فيه من هول الخطب . وكان هذا الشاعر المرحوم ممن جمع الله له أيضا كثيرا من المزايا الفاضلة والاخلاق الكريمة وأخصها علو الهمة والسعى لخير الناس . وكان ذا مكانة رفيعة عند اسماعيل باشا صديق فقام اليه فى الحال وتواقع الشيخ عليه يلتمس حسن الوساطة لدى ذلك الحاكم القاهر ليرجع فى أمره . فقام الوزير من ساعته وقصد مولاه وتلطف له ما أمكن فى الاعتذار وما زال به حتى رجع عن طلبه ورضى بعصيان عبده لطاعته وخلص المرحوم من هذه الحادثة معافى فى نفسه مصابا فى جسمه . فقد تولد من اضطراب اعصابه من شدة ما قاساه فى هذه النازلة داء الصداع فلم يفارقه طول حياته . وكانت اذا اعترته نوبته ألقته على الارض صريعا يتخبط فى أشد الآلام لايكاد من يراه على تلك الحال يصدق بنجاته فيها. فاذا أفاق لزم الفراش من عظم وقعها مدة طويلة . ولم ينجع فى ذلك الداء معالجة الاطباء

وسافر المرحوم فى سنة ١٨٩٦ الى الاستانة وحظى هناك بالمثول بين يدى السلطان مرارا وأعجب أمير المؤمنين بمهارته فى فنه وحسن تأديته له فأسنى عطيته وبلغه حسن رضائه وكان الواسطة بينهما للتبليغ فى ذلك المجلس «السيد أبو الهدى» . ومما تلقاه عنه من أوامر أمير المؤمنين أن يلقن ماغناه فى حضرته من الاصوات لبعض ضباط الموسيقى العثمانية فلقن المرحوم منه ما أمكنه ولم يسع الوقت تمام القيام بالامر فوعد أنه سيشتغل عند عودته الى مصر بربط تلك الاصوات برابطة «النوتة» ثم يعرضها على السلطان ليسهل اخذها على ضباط الموسيقى

فلما عاد الى مصر أتمها عشرين صوتا «دورا» مربوطة «بالنوتة» وارسلها من طريق رسمى الى الاستانة فلم يلق فيها ما يحقق آماله . .

وفاته

وعاد الى مصر مصابا بداء «البول السكرى» فأنهك جسمه وأضعف قواه وغادر حلوان الى سكنى مصر وقد تراكمت عليه هموم الحياة فزادت فى ضعف الجسم وظهر ذلك الداء الدفين فى الرئة ودخل من داء السل فى الدرجة التى لايرجى منهـا شفاء . وأشار عليه الاطباء بسكنى الصعيد مدة الشتاء فأقام فى سوهاج شهرين ونصفا عادتله فى أثنائها بعض قوته وتقوى أمله فى شفائه ولم يدرك المرحوم ماكنه دائه الا فى اليوم الذى مات فى غده . ثم عجل العودة الى مصر ليشتغل بوضع غنائه فى اسطوانات «الفونوغراف» طلبا للعيش ولما حضر باشر ذلك فعلا ثم جاءه نعى أحد أصدقائه المخلصين بالمنيا فاغتم عليه غمـا شديدا ولم يسمع لنصيحة أصحابه بل خالفهم لقضاء ماتوجبه عليه مروءته وسافر الى تلك المدينة واقام هناك أياما مشاركا لاهل الميت فى أحزانهم ولما عاد اشتد المرض عليه حتى أدركته منيته



هذا هو عبده الحمولى وقد رايت من ترجمة حياته أنه كان على استعداد كبير لفن الموسيقى . ومن أكبر الدلالة على استعداده شدة طربه من الغناء كأنه كان يغنى ليطرب نفسه . وشغف المرء بصناعته وتلذذه بممارستها يدلان على انطباعه عليهـا واقتداره على اتقانها . ولكن الحمولى عاش فى بلاد لم يكن لعلم الموسيقى أثر فيها واشتغل باطراب الناس عن طلب العلم من مصادره فلم يبد من مواهبه الا ماتهيأت له الاحوال

وعندنا ان الرجل لو درس فن الموسيقى على أهله فى أوروبا وعدل عن الغناء الى التلحين والف الالحان لكفانا مؤونة التحسر على ضياع هذه الصناعة بيننا وجعل للموسيقى العربية فنـا مستقلا له روابط وضوابط وكانت الالحان الشائعة على السنة المغنين مضبوطة فى الكتب على قواعد ثابتة

ولا لوم عليه فانه قد نشأ بين العامة فلما شب شغله اعجاب أكابر المصريين بما عنده من استزادته . ومصر فى غفلة عن هذا الفن . فلما افاقت كان هو قد شغل بصحته وداخليته فأسف المصريون على ما فات وأرادوا تدارك مابقى فالتمسوا حبس صوته فى الفونوغراف فلم يمهلهم أجله فضاع ولم يبق من آثار تفننه الا ما اقتبسه بعض المغنين من مجالس غنائه فى أثناء حياته . وبلغنا أن بعض أصدقائه تمكن من أخذ بضع اسطوانات فونوغرافية من صوته قبل موته



فهرس

صفحة

رجال علم وتعليم

رجال أدب وفن

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما – ما عدا كتاب زينب ١٠٠ مليم – بخلاف مصاريف البريد المسجل ، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

عبقرية محمد
تأليف عباس محمود العقاد

ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

هرون الرشيد
تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين

أبو الشهداء
تأليف عباس محمود العقاد

جنكيز خان سفاح الشعوب
تأليف ف . بان

قلب النسر
تأليف اوكتاف اوبرى

السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

الزعيم احمد عرابى
تأليف عبد الرحمن الرافعى

بطلة كربلاء (نفدت نسخه)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

اشعب امير الطفيليين
تأليف توفيق الحكيم

نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

حديث رمضان
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ.س. ارمسترونج

كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابى (جزء أول)
تأليف الزعيم احمد عرابى

مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم احمد عرابى

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

فاطمة الزهراء والفاطميون
تأليف عباس محمود العقاد

عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

ذو النورين عثمان بن عفان
تأليف عباس محمود العقاد

محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

مدرسة المغفلين
تأليف توفيق الحكيم

لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب

البؤساء
تأليف فيكتور هيجو

الارواح المتمردة ــ الاجنحة المتكسرة
الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

علمتنى الحياة
لنخبة من علماء الشرق والغرب

عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى

اهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

الله
تأليف عباس محمود العقاد

عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

نساء النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

ثائرون
تأليف محمود تيمور

زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب

غادة النيل
تأليف أميل لودفيج

طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه

مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد

يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

الف ليلة وليلة
(الجزء الاول)

عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم

الف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)

معاوية بن ابى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد

الف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)

اعرف نفسك
تأليف ادوارد سبنسر كولز

الف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)

مع الله .. فى السماء
تأليف الدكتور أحمد زكي

الف ليلة وليلة
(الجزء السادس)

قصة الثورة كاملة
تأليف أنور السادات

جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد

بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

عبقرية الامام على
تأليف عباس محمود العقاد

شاعرة الطليعة عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى

بطل الكفاح الشهيد محمد فريد
تأليف عبد الرحمن الرافعي

قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر

الكتاب القادم

محمد

بقلم

توفيق الحكيم

يصدر فى ٥ ابريل القادم

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ــ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسلمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمى ــ صاحب المكتبة العصرية ــ ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ــ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ــ مكتبة المؤيد ــ البحرين

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3,
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL.

هذا الكتاب

الأمة العربية ، فى المشرق والمغرب ، أشد ماتكون حاجة فى نهضتها القومية الحالية الى معرفة تاريخ رجالها الافذاذ وبناة نهضتها ، الذين كان لهم فضل ارساء قواعد هذه النهضة التى نفخر بها اليوم ، والتى نحس معها ان روح هؤلاء القادة القدماء قد سرت الينا جميعا

وسلسلة كتاب الهلال تقدم اليوم كتابها الجديد « بناة النهضة العربية » الذى يضم بين دفتيه طائفة من القادة والساسة ، ورجال الاصلاح ، ورجال العلم والتعليم ، ورجال الادب والفن

والذى وضع هذا الكتاب شهدت له المحافل العلمية ، وقراء اللغة العربية ، انه رجل مؤرخ عظيم ، وانه بحاثة عن الحقائق التا[illegible] لا يحيد مع الهوى ، وهذا شأن المؤرخ [illegible]

ان مؤلف هذا الكتاب العظيم هو [illegible] المرحوم جرجى زيدان مؤسس الهـ[illegible] وضع سلسلة ضخمة من المؤلفا[illegible] والروايات التاريخية التى أقبل الق[illegible] اقبالا عظيما فى جميع الاقطار العربية [illegible] الى كثير من اللغات الشرقية والغربية



